روايات مصرية

عن الحب والرعب ..

كنت أود أن أقول :

من قال إن الحب ليس مرعبًا ؟ أنت فتى كبير ومسئول فهل تستطيع رعاية من تحب ؟! هل تستطيع أن تنقذ فتاتك من الأوغاد واللصوص وقطاع الطرق ؟! هل تستطيع أن تجنبها السيارات المسرعة والأمراض والكوارث ؟! هل تستطيع أن تحميها حتى من نفسك ؟! أنت تنظر للباكين من فراق أحبائهم وترتجف خوفًا أن تهجرك . أنت حتى لا تفكر أن ثمة اختراع يسمى (موت) يتسبب في فراق الأحباء ! هل تخاف أن تتركك وتموت . هاه ؟! إذًا . كيف يكون شعورك .. لو تركت الموت . وعادت إليك ؟!!

فقط . كنت أتساءل .

6

عن لعنة (ليلى برهان) ..

استمع لى ، أنت تهمنى ، لو لم تكن تهمنى ما كنتُ لأنصحك : ابتعد عن (ليلى برهان) .

(ليلى برهان) لا تملك روحًا مثلنا ، إن لها نصف روح فقط ، والنصف الآخر حمله وفرّ به من يدعى (سامى عزيز) .

(ليلى برهان) لا تملك عمرًا مثلنا ، إن لها ربع قرن أخذته كاملاً وأنكرته، ربع قرن لا تفعل شيئًا سوى اتساع العينين وسقوط الفك مع الارتجاف، ثم الجلوس لأقرب مقعد تحكى لأول عابر عمّا أصابها، ولا تنسى أن تخبره أنها لم تأخذ شيئًا من العمر ، ويمكنها أن تصوّب عينيها الكاذبتين إلى عينيك لمدى ما شئت دون أن تطرُف ؛ تقول إنها تريد عمرها .

(ليلى برهان) لا تملك اسمًا مثلنا ، إن اسمها ميراث من الماضى والحاضر سيحنى ظهرك ، ومتاهة من كتب النثر والشِعر ستدير رأسك ، وأنشودة من أناشيد الحب والرعب سترجف بدنك ، ترعِد عظامك ، تذيب أعصابك ، تجمّد دماءك ، تزيغ بصرك ، تشيب شعرك ، تخبّط أسنانك ، تفكك ركبك ، تنحل وبرك ، تقصف عمرك ، فتحلَّ بالحكمة وانفد بجلدك من (ليلى برهان) .

(ليلى برهان) ـ أغلب الوقت ـ شعرها قصير ، يشاهدونه فى أوقات طويلًا . عينها سوداء ، تبدو فى مرات خضراء . وزنها مثالى ، ومع هذا تتبع حمية ، لأن الميزان يخبرها عن ضعف وزنها .

(ليلى برهان) ـ أغلب الظن ـ تعمل نادلة ، إنهم يشاهدونها تدخل وتخرج من مطعم غريب تحوم حوله القطط السوداء : ورديات عمل مسائية ، زبائن غرباء الأطوار ، وتقطيبة دائمة على جبينها ـ كما التعويذة ـ تطرد الأرواح الشريرة ، ومع هذا تجذبك أنت ، لأن روحك ليست شريرة ، وعودك الأخضر سينثني على يديها حتى تسمع الطقطقة ، فتشبث بجبل يعصمك منها واركض إلى أبعد ما يمكنك عن (ليلى برهان) .

(ليلى برهان) ـ أغلب العمر ـ تجلس وحيدة ، ولذلك لا أفهم بالضبط سبب ضحكها فجأة ثم تكويرها قبضتها لتدفع بها فى كتف خلى . لا أعرف سر توقفها فى الطريق لتحية من لم يوجد . أو مغزى ردها على الهاتف حين لا يرن .

استمع لى . لا تستمع إلى (ليلى برهان) !

ستدهك كما النداهة وستنجذب لها كما المجذوب . ستركض أميالاً خلف كلمة من شفاهها حين تنطق ، وستدمن حميميتها حين تنصت إليك بوجل ، وتجيب أحزانك بهمهمة لا أكثر لكن فيها كل المواساة ، وحين تصمت أنت ، سترفع إليك طرف عينها هامسة : « وماذا بعد ؟ » ، وستجد أنك تسترسل فى الحكى حتى لتنتهك قدس أقداسك ، وتفصح عن سر أسرارك دون أن تعى ، ثم تسكب فوقه روحك فى فنجان وتقدمه لها . ثم أخبرنى بعدها كيف ستعيش من دون روح .

ستحبها ، ولن تقدر أن تخبرها أنك تحبها ، ستكتفى منها بتربيت كتف الأصدقاء ، ستكتفى أن تلمح قلقها عليك إذا ما سعلت وركضها لتجلب كوبًا من الماء والدواء ، تكتفى أن تحدثها عن « صديقك » الذى يحب من طرف

واحد ، وتحدثك هى عن أحبائها الجدد الذين لستَ أحدهم . وفى اللحظة التى تقرر بها أن تتغلب على مخاوفك وتصارحها بحبك ستتراجع سنتيمترات للوراء ، ترسم الدهشة على وجهها فى حين تخبرك فيما يشبه الحرج : « ولكنى حكيت لك عن حبيبى الجديد » .

وستعرف أنت أن حبيبها الجديد هو غريمك القديم هو عدوّك الأوحد ، هو من يدعى (سامى عزيز) ، وأنَ كل حبيب غيره يأتيها حاملاً حياته على كفّه ، فتنتقى منها بعض الدفء ، بعض السعادة ، بعض الصبر على فراق (سامى عزيز) ، ثم ترد إليه كفّه . وأنت : مسكين يا أنت . أنت اسمًا على قائمة أطول من الليالى السوداء التى تنتظرك فى عشق (ليلى برهان) .

ستعلم ـ متأخرًا ـ أننى صدَقتُ حين أخبرتك أن (ليلى برهان) ملكة الاحتمالات وسيدة التناقضات وبطلة الحكايات غير المكتملة ، أنها حنونة وقاسية ، وأنها قد تحبك ، وقد لا تأبه بك على الإطلاق ، ستعرف أنها ناعمة كالثعابين ، ودمعتها قريبة كالتماسيح ، وقليلة الحيلة كما الـ « أنثى » ، أقول لك : أ ـ ن ـ ث ـ ى ، وأنت تعرف كم عظيم كيدهن !

ولن تعرف ، لا أحد يعرف لماذا تستخدم تلك البريئة أناملها الصغيرة لتكتب الرعب دونًا عن الأنواع الأخرى ، لا أحد يفهم لماذا تستخدم صوتها الرقيق لتقرأه على نفسها قبل الآخرين ، ولا أحد يلمح التماع عينها باللذة حين ترتجف خوفًا من حرف كتبته بنفسها .

انتبه لى ..

أنا هنا فى الظلام أتكبد نصيحتك ، وأنت تسعى بإصرار لأن تصيبك لعنة (ليلى برهان) ، ألم تحاول أن تسأل نفسك :

لماذا تترك (ليلى برهان) العمل فى مجال دراستها كصحفية واعدة وتفضّل أن تعمل نادلة فى ذاك المطعم المريب !

لماذا تترك البشر على الأرض وتصادق شبحًا على الإنترنت تناديه (فانتوم) وتبث إليه حكاياتها عن عوالم لا أدرى كنهها ، وشخصيات ليست على ما يُرام ؟

لماذا تتزوج بواحد فى حين تهيم بآخر ، ثم يظل بقلبها متسع لـ (عاصم) و (نائل) و (إيهاب) و(فريد) و... أخشى أن أنسى أحدهم !

ولماذا بعد كل هذا ، تظل تأمل أنت ـ فى أسعد أحلامك ـ بأن تصير «أحدهم » ؟!

ألم يخطر ببالك مرّة أن تسأل تلك الأرملة الحزينة المسماة (ليلى برهان) :

كيف صارت أرملة بعد زواجها بهذه السرعة ، وأين ذهب الطفل الذى كانت تحمله ببطنها ؟!

لم يعد هناك وقت ، استجب لى ، لا تقترب من (ليلى برهان) ، لا تعبر بشارع عبرت به (ليلى برهان) ، لا تبحث فى ذاكرتك ، لا ترسم فى مخيلتك ، ولا تردد فى خاطرك جملة تحمل اسم حبيبتى (ليلى برهان) .

بإخلاص ..

أحدهم .

« كل ميّت يحتاج إلى زفّة أخيرة .. »

مقدمة

(أيها القادم ترفّق ؛ سَلَمة الحاضر نخرة ، تُسقِطك إلى المستقبل ، وليت المستقبل أفضل ! فتمهل) .

ألتصق بالنافذة مثل برص على الحائط ، وأرقب الأطفال الذين يلعبون وسط المطر ويغنّون :

« يا مطرة رخَى رخَى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

يرفع أحدهم رأسه لأعلى ويهتف :

« شبح الأرملة الوحيدة عاد للظهور ! » .

أفتح فمى مبهوتةً .. ثم أصيح :

« هِاى ! أنت .. أيها الحلو .. انتبه ، فأنا أسمعك » .

لكنّه يكون قد نسى كل شىء عنّى وعاد للهو ، ترى ، كم فتاة ستقع بحبك حين تكبر ، كم عينًا ستخطف ، كم روحًا ستأسر ، وكم قلبًا ستكسر ، قبل أن تصير شبحًا وحيدًا مثلى لا يصلح حتّى لإخافة الأطفال ؟

أضمم الروب حول خصرى وأتخذ مقعدى إلى الحاسب ، وأطبع :

« أصدّقك يا فانتوم ، لستُ مستريحة ..

الجو مقبض ، مثلج ، لا أستطيع أن أغسل الصحون بالمنزل وهؤلاء الأطفال يركضون مُشمِّرين سيقانهم بالشوارع . السماء تُنذِر بالخراب ، تمطر من غير حساب ، وهؤلاء ينتعشون بالماء كأبناء ملك البحار ، يتوهجون بالبرق كأبناء النجوم ، ينشطون بالشتاء وكأنما لا أهل لهم يخافون عليهم أو يسألون عنهم ، وكأنهم أبناء الشياطين ، نعم هم أبناء الشياطين ، ونذير السماء هذا ليس من أجلهم ، بل من أجلنا نحن الكبار ، الذين لم يعد لنا آباء .

متى صرنا كبارًا ؟

لازلتُ صبيّة بضفيرة أركض مع الأطفال فى المطر نلقى بحقائبنا إلى الأرض ونصنع من أيدينا قنانى نحتفظ بقطرات المطر . ولكن من ذا الذى يحتفظ بقطرات المطر ؟ تتسرب ـ مع سنوات العمر ـ من شقوق أصابعنا ، فنعود نرفع أيدينا للسماء ونغنى :

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

فى العادة ، لا أنسَى شيئًا ، أما فى الليالى القارصة كهذه ، أوصد الأبواب وأغلق النوافذ وأدعمها بألواح الخشب تحسّبًا من هجوم الذكريات ، فوران الحنين ، وحساب الزمان كحساب الملكين :

يسألنى عن أصدقاء الطفولة ، أحبّائى القدام ، وحتى العابرين فى الشوارع الذين لمحتهم ذات مرة فتبادلنا كلمة أو نظرة عين .. لماذا أظل أذكرهم وحدى ، لماذا لا تكف تتسع دائرة الحنين ، أى مسخ صبّ على رأسى لعنة الذاكرة ؟!!

يعود الماضى مثل زومبى يطرق على بابى ، أعجب لأمره : « ألم ادفك وانتهينا من هذا الأمر ؟ » .

يبتسم الماضى وينفض الغبار :

« طيّبة جدًا ! » .

لا يعيد إلىّ أحبّائى أو المقربين ، وإنما يتحفنى فى كل مرة بمسخ زنيم ...

لكنّ ذاك المسخ كان مختلفًا ..

كانت أنثى،

وكانت فى غاية البهاء والبشاعة ،

عينها مثل الموج ، وشعرها شلال ...

واستأثرت بالقبح والجمال ...

وكان اسمها ...

لن يمكننى نطقه ،

لأنها تحضر على إثره ،

ولستُ مستعدة حالاً لواجب الضيافة ،

ولكنّها ، وعلى كل حال ،

تفضّل أن أناديها : ماما » .

١

عن الزمن الذى لا يعود للوراء

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... ».

الصورة مضببة نوعا . المطر يتساقط بغزارة . والأصوات الطفولية الطازجة تردد الكلمات بنبرات لاهية . رخى ، رخى .. كلمة موسيقية .. رخى رخى .. كلمة وقعها مضحك .. هاهاها . هاها ، صوت واحد ينشز عن اللحن . صوت واحد يبكى فى الخلفية . يبكى بخفوت شديد ، وأسمعه بوضوح شديد، فالأصوات واضحة جدا ، لكن الصورة مضببة حقا . كما ذكرت سابقا .

انتفض مستيقظة .

* * *

أهتف به :

ـ انتظر . أحذنك .

لا يحرك ساكنا . أهدهده :

ـ ما الذى حدث لنا . ألا تلحظ أننا صرنا كالغرباء ؟

لا يريد أن يجيب . أتودد إليه :

ـ ما الذى غيرك ؟ أنا لا أريد أن أخسرك ..

تفتح أمى باب الغرفة فتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتضيء النور :

ـ من الذى تحدثينه بالظُلمة ؟

أنظر إليه وأقول :

ـ شَعرى .

تضرب أمى على صدرها :

ـ أتكلمين نفسك فى المرآة ؟

ـ تصوّرى أنه لم يطل أبدًا طوال السنوات السابقة ، هل تظنين أن هذا طبيعىَ ؟

تمصمص شفتيها :

ـ ما كان أجمل شعرك ! كان طويلاً ومُرسلاً وكانت تغار منكِ كل الفتيات لكن أيضًا ما أنشف رأسك ، حين تصرّين على شىء ليس لأحد فى الكون أن يثنيك .

تزفر أمى ، وتبتلع حديثها ، أقرّ بحتمية :

ـ كان علىَّ أن أقصّه .

تجلس على حافة الفراش وتقول :

ـ لم تقصّه ، بل قولى جززته أو حششته كما يحصد الموت الأرواح بالمنجل ، كان مشهدًا مريعًا حين فتحت الباب لأجدكِ تجزين شعرك فى الظلام أمام المرآة ، بالأحرى ، كان مشهدًا كهذا المشهد ، لماذا لا تضيئين النور ؟

ـ لم يعد يطول ، كما أصبح مقصّفًا وتالفًا وأشبه بسلك المواعين ..

ـ لا تذهبى إلى العرس هكذا ، من أجل هذا أُخترِعَت الكوافيرات .

أداعب شعرى وأقول :

ـ أعلم .

* * *

يرفع المصفف خصلة من شعرى ويتملّى قليلاً بوجهى ثم يزفر .. هل يتعجب من تناقض حلا وجهى وقبح شعرى ، هل يدهشه تنافر خصلات شعرى برغم وداعة ملامحى ؟ هل يتحسر على قصر شعرى أم طول الأوقات العصيبة التى تنتظره فى معالجته ؟

لا من سابق معرفة ، ولا شىء يدعونى لاستقراء أفكاره ، ولا أدرى حتى لماذا أتيت إلى هذا الكوافير بالذات ، برغم بُعد المسافة عن منزلى وعن قاعة الفرح على السواء ، والتى تعج بالكوافيرات .

ـ هل تفضّلين شيئًا معينًا ؟

أحبّ الأسئلة التى تمنحنى آمالاً عريضة واختيارات لا نهائية ، أحبّ الأسئلة الجدّية .

ـ هل يمكنكَ أن تعيده طويلاً ؟

يبتسم بارتباك :

ـ أتقصدين إضافة وصلة ؟

ـ بل أقصد إعادة الزمن للوراء .

يتوقف عن العمل وينظر لى عبر المرآة ، من الواضح أنه لا يحب الأسئلة التعجيزية ، وأنا لا أحب الأسئلة بحكم الواجب أو العادة أو عزائم المراكبية، لا أحب الأسئلة الهزلية ؛ أومئ برأسى فى استسلام :

ـ فقط افعل ما تفعله لكل العميلات .

تدوّى صرخة من الغرفة الداخلية ، تتقلص يده جاذبةً معها شعرى للوراء ، تظهر عاملة مذهولة على باب الغرفة ، فيسألها بجزع :

ـ ما الأمر ؟

ـ شعر الزبونة !

ـ ما له ؟

تتردد قليلاً :

ـ يكهربنى !

يبدو عليه العَجَب :

ـ ربما شحنات ستاتيكية أو شىء ما !

تهتف العميلة الملولة من الداخل :

ـ كهرباء زائدة فى المخ ، ليس أمرًا كبيرًا !

تفسير غريب لكن من قال إن المصفف لن يرضى بأى تفسير ، يزجر العاملة :

ـ لا كلام فارغ ! عودى إلى العمل !

تخطو تلك بتلكؤ إلى الداخل ، يتابع فرد شعرى فيما يتمتم بكلمات عن حماقات العاملات ، وذلك حين تصطدم به العاملة المجاورة فى وثوبها المذعور إلى الخلف :

ـ حشرات ! حشرات !

يهتف بها وقد تبدل مزاجه تمامًا :

ـ أين الحشرات ؟

ـ فى رأسها !

ينظر لها بذهول ، ثم يخفض من صوته ويميل عليها :

ـ تعنين قَمْل ؟

ـ بل .. بل ... .

تبتلع ريقها :

ـ صراصير !

يصرخ بها :

ـ ما الذى تقولينه ؟!!

تدير تلك الزبونة رأسها بحدّة وتصيح :

ـ الصراصير هذه فى محلّكم أنتم ، لو أن محلّكم نظيف لما ظهرت الصراصير بشعرى !

وهى العلاقة التى لم يفهمها المصفف ، ولكنّه مع هذا بدا أميَل لتهدئة الوضع ، فصاح بالعاملة التى لم تنطق أصلاً :

ـ خلاص ! خلاص ! أنا سأقوم بعمل شعرها ، وخذى أنتِ مكانى .

بدأت العاملة فى تناول شعرى وهى تحاول توجيه رأسى إلى الأمام ، أما رأسى ، فكانت متوجهة تجاه الفتاة ذات الصراصير ، لماذا أشعر كأننى أعرفها ، ولو كنتُ أعرفها ، فلماذا أكتفى بأن أشعر بهذا !

لكنها لم تنظر إلىَّ ، كانت تتألم مع كل لسعة لشعرها بالمكواة على يد المصفف ، الذى يتراجع للوراء أيضًا مع كل لسعة من مكواته للكائنات

المسكينة التى تقطن رأسها وتتطاير فى الهواء فى رقصة احتراق محمومة قبل أن تسقط ميتة ، مرتان ، ثلاثة ، يترك المصفف رأسها ويصيح :

ـ لا ! هذا أمر لا يمكن احتماله !

ـ أنا أدفع لك من أجل أن تقوم بعملك .

ـ لقد حاولت صدّقينى .. أنا لم أرَ فى حياتى شيئًا كهذا !

فتحت فمها لتعترض ، لكن أسكتتها صرخة من فم آخر ، عاملة مجاورة تنفض يدها التى نمت فوقها الدماء وتصيح :

ـ لقد ثقب معصمى ، ثقب معصمى !

يتناول المصفف يدها ويرفعها تجاه وجهه ، يدقق النظر فى الثقبين بباطن المعصم ، ثم يقول وقد خرجت عيناه من محجريهما :

ـ هل تعنين ... ؟

ـ شعرها ، شعرها ثقب معصمى .

أمّا شعرها فكان منتفشًا متصلبًا مسنونًا بينما وجهها رائق غير مبالٍ ، رفعت الفتاة ذات الملامح الطفولية والشعر الأحمر رأسها وقالت فى برود أقرب للشماتة :

ـ أخبرتكِ أن تخفضى الإضاءة .

وقبل أن أفهم العلاقة ، أو أذكر حتى أين رأيت هذه الملامح من قبل ، تحدثَت فتاة محجبة من مقاعد الانتظار ، ملامحها مرسومة ولا يبدو أنها بحاجة لكوافير أصلاً ، تدخن سيجارة ومن الواضح أنها لا تبالى بكل هذا الذى يحدث :

ـ من فضلك .. إننى متعجلة ، أنا لا أريد عمل شعرى ، فقط أريد تاتو للحواجب .

لم يكن صوتها على مستوى جمالها ، لكن مع مثل هذا الجمال لن يدقق أحد بالصوت ، لم يجبها المصفف الذى كان فى حال لا يُحسَد عليها ، لا يدرى أى منافس دعا عليه وكان باب السماء مفتوحًا ، وقبل أن يستعيد بأسه او يلملم شتاته ، علا الضجيج من جديد من الغرفة الداخلية ، ولاحت العاملة تتقدم بصعوبة على باب الغرفة :

ـ خلّصونى منها ، خلّصونى منها ..

تعلقت أعيننا بمدخل الغرفة فبدت العاملة مزرقة اليدين بشدة ، ومقيدة بإحكام بخصلات سوداء مجدولة ، تسحب معها الفتاة صاحبة الشعر الطويل لذى تناثر فوق وجهها ، وقد انطلق صوتها يقطر حقدًا :

ـ أخبرتكِ مرارًا ألاَ تغسليه .

ترفع العاملة وجهها إلى المصفف فى استجداء :

ـ كان عطنًا جدًا ، لم يبدُ أنها غسلته فى حياتها ، كيف كان لى أن أعمل هكذا!

تزيح الفتاة الخصلات عن جبينها المجعد وعينها الحاقدة ، وتؤكد من بين أسنانها :

ـ ومع هذا ، ما كان ينبغى أن تغسليه !

يتراجع الجميع خطوة للوراء ، تعلو الهمهمات ، أما أنا فلا يشغلنى كل هذا ، فقط كيف صارت كل الملامح مألوفة لدىَّ فجأة ؟ ثلث وجهها الأعلى يستحوذ على انتباهى ، ألا يمكن أن تكون ـ وإذا اتسمنا بسعة الخيال فى تصوّر كيف تكون بعد عشرة أعوام ـ هى نادية بالذات ، شريكة مقعدى فى الصف الخامس الابتدائى ؟

أهتف على الفور :

ـ نادية كمال !

تضيّق عينيها وتشتبك تجعيداتها :

ـ ليلى برهان !

تقترب منّا فتاة الحشرات وتصيح :

ـ خامسة أوّل !

الآن وقد عرفت أين أبحث عن وجهها أهتف :

ـ وردة !

تنزل فتاة الإضاءة عن المقعد وتقول فى بساطة :

ـ فتيات خامسة أول ! شلة العاوَ القادم .. يا لها من صدفة ! أنا ماهر

ـ آه .. ماهينار ، لم تتغيرى !

نتضاحك جميعاً ، نكاد نقترب من بعضنا نتحاضن ، غير أنى أبتعد للوَى، تبتعد كل واحدة أيضًا من ويلات شعور الأخرى ، أبتسم على استحياء :

ـ عفوًا ، لكنها مصادفة جميلة ..

ـ يا لها من دنيا صغيرة !

ـ وها قد اكتملت من جديد الصحبة !

تطفئ الفتاة المحجبة السيجارة ، وتزفر دخانها الأخير ، ثم تقوم تبسط ذراعيها فوق كتفى ونادية ، وتقول :

ـ هل حقًا يمكن أن تكتمل الصحبة من دون آسيا ، زعيمة الشلة !

نتفحص قليلاً فى وجهها ، تصيح الفتيات :

ـ من غير الممكن !

ـ لقد تغيرتِ كثيرًا يا آسيا !

وأقول :

ـ آخر واحدة كنت أتوقع أن تتحجب !

تبتسم بقسوة :

ـ ولماذا ؟ هل تريننى شيطانة إلى هذا الحد ؟

أزمجر مبتسمةً ، ومن حسن الطالع ، ينقذنى المصفف من المأزق ، وللمرة الأولى أسمع نبرة الارتياح فى صوته :

ـ حسنًا إذًا ، ما دمتن معرفة قديمة ، أرجو منكن المغادرة فورًا منعًا للإحراج .

تتناول نادية منشفة وتبدأ فى تجفيف شعرها ، وهى تشير إلى جهاز السيشوار :

ـ إذًا ، أسرع بتجفيف شعرى ، ومن المستحسن أن تبيعنى هذا السيشوار .

وتقول وردة :

ـ وأنا أحتاج مبيدًا حشريًا ، من أقرب صيدلية .

تثب ماهينار مثل طفلة تطلب آيس كريم :

ـ واحضر لى معها واقٍ من الشمس .

ثم أردفت بينما تقضم طرف إصبعها :

ـ من أجل شعرى .

أما أنا ، فقد عقصتُ شعرى كيفما اتفق ، وجلستُ أفكر فى هذا الذى

٢

عن الحدأة التى لا تقذف بالكتاكيت ..

سألتهن :

- كيفكن يا بنات ! كم رائع أن نلتقى بعد هذا العمر !

- أنا بخير ..

- وأنا بخير .

- الحمد لله ..

- الحمد لله .

ها هى مرحلة «الحمد لله» قد بدأت . لا أحد ينوى أن يصرح بضعفه منذ البداية . ولكن لا بأس . علّ هذا يتطلب بعض الوقت . تقول نادية :

- لم أتوقع أن أراكن فى الكوافير . وإن توقعتُ أن أراكن فى العرس . هل أنتن معتادات على ارتياد هذا الكوافير ؟

تقول وردة :

- أما أنا فلا . ولكن من الجيد أن تعرفنا بعضنا بعد هذا العمر ..

تجيبها نادية :

- وكيف لا يا عزيزتى . ألم يكن عشًا وملحًا ؟ انتظرى .. اقتربى هكذا ..

تلتقط نادية شعيرة من أسفل عين وردة وتقول :

ـ هذا رمش ساقط ، فلتنفخيه ولتتمنى ..

لا تكد نادية تبسط يدها لـ وردة حتى تستوقفها ماهى ناظرةً إلى كلها عن كثب :

ـ انتظرى ، هذا ليس رمشًا ، هذا أشبه بـ .... شارب صرصور !

تقذف نادية بالشارب فى جزع ، ترمش وردة بجفنيها وتلتقط أنفاسها تُسرِع آسيا بإقحامنا فى سيارتها ، نادية فى المقعد الأمامى ، وأنا والبقية فى الخلف .

* * *

فى سيارة ضيقة تحتشد خمس حيوات كاملة لطفلات كنّ صديقات ثم نضجن ، ولم تتقاطع حيواتهن من قبل لعشر سنوات كاملة ! الفكرة تثير خيالى .

ماهينار لازالت طفلة ، لم يتبدل سوى لون شعرها ، صار أحمر ناريًا ، وهذا تطوّر جيّد بحد ذاته ، فأمها الأكثر جنانًا منها كانت تصبغه لها أزرق ، وتترك المدرسين فى حيرة لا يعرفون هل يوقفونها للمخالفة أم أن لون الشعر لا يُحتَسب ! أما آسيا فقد صارت جميلة ، صارت تعرف كيف تبرز جمالها ، وقد منحها المكياج مع الحواجب المرسومة والرموش الاصطناعية مظهرًا

مليحًا لكنّه قاس ، يهيئ لى لو أننى قستُ أبعاد وجهها لوجدتها مضبوطة بالميللى ، ثم النظرة الجامدة بعينها ، افعل ما شئت إنك لن تهز شعرة منّى ، افعل ما شئت إنك لن تنال استحسانى ، افعل ما شئت فإن فعلك أو عدم فعلك لا يمثل أى فارق ، أكاد أجزم بأنها تحظى بالمرح فى علاقاتها بالجنس الآخر .

وردة مازالت رقيقة وناعسة ، أشعر أنى أريد أن أزيل عن عينها بعض الغَمَص كلما نظرت إليها ، ونادية ، برغم انفعالها فى الكوافير ، لكن لها أطيب قلب ، ولم تزل تبذل الحنان للجميع .

قالت نادية :

ـ لم تختلفن كثيرًا عن آخر مرة رأيتكن يا بنات ، ماهينار مازالت مشاغبة ، وردة وديعة ، ليلى غريبة الأطوار .. أما أنتِ يا آسيا ... حقيقةً لم أتوقع أن ترتدين الحجاب !

رشفَتْ آسيا من سيجارتها وقالت بصوتها الأجش :

ـ ما أمركما أنتِ وليلى ! لقد هدانى الله !

ثم نفثت الدخان من النافذة ، الأمر الذى لم يقنع نادية .. هتفت ماهينار بنبرة مرحة :

ـ هاه .. أخبرننى كيف أحوالكن يا بنات .. هل تزوجتن ، أرونى أيديكن ...

لم تبسط إحدانا يدها .. قالت نادية :

ـ أبدًا ، فقط خطبة فاشلة ..

أيدتها وردة :

ـ نفس الحال هنا .

لوت ماهى شفتيها لأسفل :

ـ أوه... خسارة ، خاصةً أنتِ يا نادية تتمتعين بطيبة وحنان زائدين ، ولكم أعطيتنى شطائرك ، ستكونين أمًا عظيمة ، ولكن ما سبب فسخ الخطبة ؟

ـ النصيب .

وافقتها وردة :

ـ أجل ، القدر .

ها قد ابتدأت مرحلة « أنا لن أفصح عن أسرارى مجانًا ، وليعترض أحدكم على القضاء والقدر » . قذفت آسيا بعقب السيجارة من النافذة ثم التفتت تنظر إلينا باشمئزاز :

ـ هل تقصدن أن تلك الشاحبة التى تُدعى ريفال هى الأولى فى الزواج بيننا ! سحقًا لها !

رمقتها نادية بطرف عينها ... ها قد انتهت مرحلة أنا شاكرة « الحمد لله »

وراضية بـ « قضاء الله » ، إلى مرحلة « سحقًا للنصيب إذا تجاوزنى أنا ! » . أردتُ أن أذكّرها بالحقيقة :

ـ ولماذا لا تتزوج قبلنا وقد كانت الأجمل ليس بيننا وحدنا ولكن بين فتيات الكرة الأرضية !

ـ تلك الخصلة !

قالتها آسيا بغل بينما تدفع خصلة من الشعر عن عينيها ، حامت الخصلة نحو نادية ، طافت بأريكتنا الخلفية ، ثم عادت ثانيةً تشاكس آسيا . أمسكت آسيا بالخصلة وكوّرتها كما يجب وألقت بها من النافذة ثم رفعت الزجاج ، دخلت الخصلة من النافذة الخلفية ودارت دورتها من جديد قبل أن تستقر على جبين آسيا ، سألت ماهينار :

ـ خصلة من هذه ؟

ـ ليست من لون شعرى .

ـ ولا أنا

ـ هل تقصدوننى أنا ؟

رحنا نتبادل الاتهامات ونقوم بالتحريّات ، فى حين قالت آسيا :

ـ أرحن أنفسكن ، إنها خصلتى .

فى هذه اللحظة أطبقت الخصلة على عينى آسيا فانحرفت السيّارة بعنف ويسرة فيما تحاول آسيا إزاحة الخصلة أو التحكم بالسيّارة من دون جدوى، تعالى الصراخ لم يهدأ إلاّ حين ارتطمنا بعمود إنارة ، نزلنا عن السيارة واطمأننّا أننا بخير ، نظرت ماهينار حولها وأشارت إلى النيل على جانب الطريق ، وقالت بينما تضبط هندامها :

ـ ما رأيكن بحمص الشام والبطاطا الساخنة ؟

وفى نَفسى غبطتها ، حلوة هذه الروح ، ليست روح من خرج للتو من حادثة ، كما حلوة هيئتها ، لابد أنها نجمة كليتها كما كانت نجمة المدرسة، ولابد أن نصف الدفعة قد وقعت بحبها .

* * *

تعجبَتْ نادية بينما تلوك الحمص :

ـ خمسة سواريهات تتناول الحمص على الكورنيش ! لا أدرى لماذا أطعناكِ !

شاكستها ماهى :

ـ اهدئى ماما نادية .. مازال الوقت مبكرًا !

تضع ماهينار الكوب ، ثم ترفع ذيل الفستان متقدمةً نحو النيل :

ـ هيا .. اتبعننى !

تشيعها عبارتى :

ـ أيتها المجنونة ، ستفسدين مظهرنا قبل بدء العرس !

ـ عزيزتى ليلى ، دعينى أخبركِ إن مظهرنا قد فسد مسبقًا ، بفعل شعورنا الملبّكة !

ـ أجل ، صدقتِ .

تصنع وردة من يدها مروحة ، تديرها أمام وجهها :

ـ أخشى أن يُفسِد حر أغسطس مكياجى ..

تحاول آسيا أن تزيح الحجاب قليلاً للخلف :

ـ لن تشعرى بالحر أكثر منى فى هذه اللفافة اللزجة !

تقفز ماهينار تملأ كفيها من ماء النيل :

ـ ما بالكن أيتها الفتيات ! هل تردن بعض الترطيب ؟

ثم تقذف بكرات الماء باتجاهنا ، تبتعد آسيا ، وتحاول وردة حماية وجهها بذراعها ، أمّا أنا فأتحمس لأن أبادلها رش الماء والعداء ، أمّا كرة الماء التى أصابت نادية ، فقد حولتها من الأم الحنون إلى زوجة أب أو عجوز شمطاء أو ساحرة شريرة ، وقبل أن ندرك ما يحدث ، سمعنا أزيزًا لشعر النادية ، وانقض فى الهواء تتطاير منه الشحنات باتجاه ماهينار ،

التى فقدت القدرة على الحركة أو النجاة ، كما لو واجهتها مقطورة مسرعة ، وحمدًا لله أن أبعدتها وردة فى اللحظة المناسبة .

أربع منهن ..

أربع صديقات لطيفات ودودات ووحدى أعلم أنهن لسن كذلك . إننا نتحاشى الكلام عن الأمر بتعمد مقصود ومبذول فيه الجهد . لا أريد أن أسأل ، ولا أحد يريد . لا أسئلة ، لا مزيد من الأسئلة ، أنتِ تعلمين وأنا أعلم ، والله يستر ، وكم من أسئلة عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم !

ـ لقد سعدتُ برؤيتكن .

قلتها وأنا أرفع أطراف ثوبى محاولةً المغادرة ، أمسكتنى وردة من ذراعى :

ـ ما بالكِ يا ليلى ، لم يحدث شىء !

ـ آه ، صدقتِ ، الذى سيحدث لم يحدث بعد ، وأنا كذبت ، لم أسعد برؤيتكن ، لقد كانت مجاملة ، وإذا ابتعدنا عن المجاملة فإن رؤيتكن قد تسببت لى بغصّة ، ولا أرغب بأن تتكرر ثانيةً .

ساوت نادية خصلات شعرها ، وقالت :

ـ لا تكونى طفلة .. ثمة أمور غريبة تقع مع شعورنا ، وما المشكلة بالنسبة لى ، أعدكن أن أكون مهذبة ما دمتن تبعدن الماء عن شعرى

طلب بسيط ، أليس كذلك ؟

ثم طوّقت ماهينار بذراعها على سبيل الاعتذار ، استجمعت تلك شتات نفسها وقالت :

ـ لا تفسدى السهرة علينا يا ليلى ، ولننطلق على الفور إلى قاعة الزفاف ..

ـ هيا يا ليلى !

ـ هيا لنلحق بالزّفّة !

وأنا قلبى الرقيق لا يحتمل أن أفسد السهرة على أحد ، ولا أحب أن يتحايلن علىَّ ليلحقن بالزّفّة ، كما لا أحب أن أشكر فى نفسى ، تضبط كل واحدة من هندامها ، تقول وردة على سبيل كسر التوتر :

ـ أربعة فساتين باهظة تعلوهن شعور مشعثة ، محظوظة يا آسيا ، تحفظين مظهركِ بهذه الطرحة .

تبتسم آسيا بنصف فم ، ثم تُسقِط ابتسامتها وتتقدم من السيّارة .. تنتبه وردة إلى حقيقة للمرة الأولى ، وتثير انتباهنا :

ـ هذه الطرحة تخفى شيئًا ، أليس كذلك ؟

ـ ولا أى شىء !

تقولها آسيا ، بينما تدس جسدها فى السيارة ، تدير المفتاح ، ثم تلوى عنقها تجاهنا وتقول :

ـ ولا أى شىء على الإطلاق .

تقول وردة كالمنوّمة :

ـ هاه ! لقد صرتِ مثلها .... .

تحتد آسيا بأكثر مما يستحقه الموقف :

ـ إيّاكِ أن تشبّهينى بها ... أنا لن أكون أبدًا مثلها .... .

الماضى يراودنى فجأة ، الماضى يلاحقنى ركضًا ، الكثير من الذكريات الرديئة ، الدنيئة ، القميئة ، القبيحة ، ولست بجيدة فى العدو .

* * *

٣

عن الماضى الذى لا يموت

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... »

* * *

على باب المدرسة .

تقف الفتاة فى المربلة الكحلى والحجاب الأبيض محتضنة حقيبتها . ترفع عينها إلى السماء التى تمطر ، ثم ترسل طرف عينها إلى الفتيات اللاهيات بالداخل فى انتظار الآباء يقلّهن بالسيارات . رذاذ المطر يطالها ، وبالنسبة لجسدها النحيل فهو أمر لا يمكن احتماله . ولكنها لن تحتمل أيضا المضايقات التى قد تقع لها إذ تنتظر وحدها بعد غياب المدرسين والناظرة والفراشة ، تحزم أمرها ، ترفع الحقيبة تظلل رأسها ، وتمد الخطا .

ضوء الليزر الأحمر يشاغلها من بعيد ، يرسم حدودها ، يتحرش بجسدها ، يخترق فراغاتها ، ويمد طريقها ... تسرع الخطا ، من الحكمة ألا تبدى انفعالاً ، من الغباء أن تلتفت خلفها ، ولكن من دون أن تلتفت هى تعرف ما يقع بالخلف ، تسمع دبيب الأحذية ، زوج ، زوجان ، خمسة ، بل ستة ، ستة منهم .. رذاذ المطر يطالها ، لكنه ليس ما يشغلها ، ما يشغلها هو ما ، سوف ، يطالها .

يتوافدن فى دائرة حولها ، يضطرونها لأن تتوقف ، تصيح زعيمتهن بصوت ضاحك مسبقا :

« شلّة العاوَ القادم ... ابدأ » .

تجذب إحداهن الحقيبة من فوق رأس الفتاة يغرقها المطر ، تركل إحداهن خلف ركبة الفتاة تسقط بالوحل ، تسكب إحداهن زمزمية ماء فوق رأسها ، تثبت إحداهن ضوء الليزر إلى عينها ، تدس إحداهن خنفساء بعنقها ... يرددن بسعادة جمّة :

* * *

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

* * *

إنهم سعداء فى الحقيقة ، سعداء فى أعماقهم ، الأطفال لا يعرفون الادعاء ، الأطفال لا يعرفون الرحمة ، كما يحبّون اللعب بالماء ، تتملص الفتاة ، تتلوى ، تبكى ، تتحاشى الضوء ، الوحل ، الخنفساء ، الماء ، رذاذ المطر ، هذا أمره هين ، حين تنشر ملابسها ستجف فى الصباح ، لكن ماذا عن رذاذ الدموع ؟

* * *

٤

عن العريس الذى يزفونه

واه !

فغرنا أفواهنا على باب القاعة .. ومالت إلى وردة قائلة :

ـ ابنة المحظوظة ! لابد أن عريسها ثرى جدًا .

نظرت إليها فى ابتسام لائمة ، ثم عدت أتطلع إلى المكان بحقد ؛ القاعة فى الطابق العلوى من الباخرة الراسية ، أينما تجلس فالنيل أمامك . السقف مرتفع ، الثريات متدلية ، الكئوس والمقاعد والأباليك أكثر أناقة من المدعوين ، المفارش كالفساتين يختلط عليك أمرها ، الشموع والأزهار والشيكولاتة بعضًا من الديكور ، وهذا جانب من الوصف ، وحين يأتى النصيب ، أتمنى أن أتزوج فى قاعة كهذه ..

بمجرد دخولك من باب القاعة ، هناك طاولة تقف مثل النصب التذكارى وعليها مجموعة من أحدث صيحات الأعراس ، كئوس ، شموع ، وحتى دمى كلها ترتدى زى العروسين ، هناك دمية بالذات يظهر بها الإبداع فى تجسيد ملامح العروسة ، وقفت أتفحصها حبًا على أستشف ملامح صديقتى بعد هذا العمر ، ثم فضلت أن أنتظر حتى أراها بنفسى ولا أفسد المفاجأة ، فيما أسرعت ماهيتار إلى التدوين فى دفتر الضيوف ، وكان علينا أن نسلم هواتفنا بمجرد الدخول إلى القاعة ، وهو الأمر الذى استهجنه الجميع ولكن

فخامة القاعة وحفاوة الاستقبال جعلانا نشك بأنفسنا ، سألتهن فى تحدٍ قبل أن أبادر بتسليم هاتفي :

ـ وهل حضرتن أفراحًا فاخرة كهذه من قبل ، حتى تقلن لم يحدث من قبل ؟

لم تتمالك آسيا نفسها :

ـ وكل هذا من أجل العروسين : « فارس » ، و« ريفال » ؟! وما الذى تتفوق به علينا حتى تسبقنا إلى زيجة رغدة كهذه ؟

هوّنت عليها نادية :

ـ على الأقل يُشكَر لها أن تذكرتنا ، هكذا تكتمل شلّة العاوَ القادم .

عاجلتها آسيا بنبرة حادة :

ـ لم تتذكرنا إكرامًا للأيام الخوالى ، وإنما لتباهى بالزيجة الوجيهة ..

استدرتُ إليهن مهدّئة :

ـ ما لكن يا بنات ! هذا نصيب ، ولازلنا صغيرات .. نصيبنا سيأتى عمّا قريب ..

غمغمن فى حسرة :

ـ آه !

ـ نعرف !

وقالت ماهينار :

ـ لا بأس من هذا ، علّ النحس ينفك ، والبكرة تكر !

ثم أضافت مشاكسةً :

ـ تعرفن يا بنات حين أتزوج ، سأتزوج فى هذه القاعة بالذات ، ثم أدعكن لتحقدن علىَّ .. يا حقودات !

ضحكت الفتيات ، وأسررتها فى نفسى ، أيتها العفريتة ، لقد قالت ما عزمتُ عليه بالضبط . تعالى الضجيج بالخارج ينم عن قدوم العروسين ، فخرجنا لاستقبالهما وحضور الزفة . تقدم العريس عروسه ، ثم مدّ إليها يده يساعدها على عبور الجسر الخشبى إلى الباخرة ، علقت أعيننا به أولاً ، لم يكن ثريًا عربيًا يفوقها عمرًا كما توقعنا ، لم يكن ثريًا محلّيًا قصيرًا وسمينًا كما تمنينا ، كان شابًا وسيمًا عريسًا كما يقول الكتاب ، وهذا ما لم نعمل له حسابًا . انتقلتْ بنظرى نحو العروس إذ تتهادى فى دلال أنثوى وأناقة ملكية رافعةً أطراف ثوبها الأبيض الطويل الذى يغلّفها من رأسها حتى أصابع قدميها ، حتى وجهها ضيّقتْ عينى وحاولت مرارًا أن أبصره فلم أستبنه ، تخفيه فى غنجٍ بغلالة بيضاء ، مدّت يدها تستند إلى يد عريسها ، وهمّت لتخطو أولى خطواتها فوق الباخرة حين أصدر الجسر الخشبى صليلاً عاليًا جمّدها فى مكانها ، شرخ يسير يتبعه شرخ كبير وفى أقل من ثانية

وبلا أى دلال أنثوى ولا أناقة ملكية قفزت العروس مخلّفةً جسرًا محطمًا من خلفها ، فالتقطها عريسها وارتجّا معًا فى مكانيهما . وفى ذات اللحظة دوّت انفجارات عالية هزت السماء ، وبعثرت الأرض ، وتناثرت الأضواء ، قبضت وردة على ذراعى وصاحت بصوت مرتجف :

ـ ما هذا ؟

ـ إنها مفرقعات نارية .

ـ ظننتها نداءات استغاثة !

هدأت المفرقعات فالتفت العريس إلى عروسه وأدار وجهها ، قلت فى نفسى : هنا حيث يرفع عن وجهها الغلالة ، هنا حيث يقبّلها فى جبينها ، ولكنه لم يفعل . تعالت أصوات الدفوف والطبول وأغانى فلكلور تقول إن العروسة حسناء ، والعريس ثرى ، أو بألفاظ أخرى : العروسة بيضاء ، والعريس فنجرى ، تلك الألفاظ الشعبية التى تعجب علية القوم الذين يعيشون فى أبراج عاجية ولا يختلطون بالعامة إلاّ حين يقدمون لهم خدمة أو عرضًا لتسليتهم .. لابد أن هناك سيدة فى جانب من الزفة تضع كفها على خدها وتهتف : « Oh ! Fantastic ! » ، أو : « Oh ! Oriental ! » .

تقدم رجلان فى زى صعيدى يمسكان بالعصى ، واشتبكا فى معركة وهمية على نغمات الموسيقى ، والعريس يضبط هندامه ويوزّع الابتسامات مثل نجوم السينما ، يتوقف أحد الرجلين عن الرقص ويبتعد تاركًا الساحة

للآخر الذى يدور فى رقصة منفردة ، يتقدم الحطّاب الأول من العريس الباسم قاذفًا إليه بعصاه فتسقط ابتسامته فجأة ، يقترب الحطّاب الآخر من العريس رافعًا عصاه شاقًا بها الهواء فوق رأسه وعازمًا على شج رأسه ما لم يتدارك العريس الأمر ويرفع عصاه يحمى رأسه ، وجد العريس نفسه فى معركة ليست تخصه ، ولم يسمح له خصمه بأن يأخذ أكثر من دور المدافع ، كما لم يبدُ أنها جزء من الرقصة ، خبطات العصى تصيبنى بالقشعريرة ، أترقب بحماس ما تنتهى إليه الرقصة ، تدفق الدم إلى وجه العريس فتخضب بالحمرة ، توقف المدعوون عن التصفيق وتكهرب الجو ، تصاعدت حمى العراك واشتد الحطّاب على العريس جدًا ، حتى لحظة ، التمع جنون القوة بعين الحطّاب ، وأجهز على العريس الذى ارتكن إلى المدعوين من خلفه . سعل العريس كمدًا ، كما ابتسم الحطّاب حرجًا ، وترك عصاه وتوارى .

ظهر حصان مضحك يتقدم بأربع أرجل بشرية معطيًا طابعًا طفوليًا مخففًا من وقع الفقرة السابقة ، دقت الدفوف وراح الحصان يتمايل ثانيًا أقدامه وهازًا عنقه ، يقترب الحصان من العروس ، ويرفع قدمه على سبيل التحية ، لا تدرى ما تفعل غير أنها تصافحه بكفها كردٍّ للتحية ، ينتقل الحصان إلى العريس غير أنه وقد صار حذرًا جدًا فقد وقف مترقبًا ولم يرد التحية ، أطلق الحصان زمجرة غاضبة لا أدرى إن كانت مُسجّلة ، ولوى عنقه للوراء ثم عاد يقترب عازمًا على جنى التحية ، يقترب الحصان فيتراجع العريس برأسه للخلف ، ثم بجذعه ، ثم بخطوات للوراء ،.كلما ضرب الدف كلما تحمس الحصان ، صارت الضربات حماسية محمومة وقد جُن الحصان ،

إنه يصهل كجواد حقيقى ، يهز ذيله كجواد حقيقى ، ولم يعد ممكنًا تصوّر أن هذا الصوت مسجل ، يتقدم الحصان الذى لم يتمكن من تحية العريس أكثر وأكثر ، أما العريس الذى قد ترك عروسه وأصبح خارجًا عن الزفة واصل التراجع بينما يتطلع إلى الوجوه مستجديًا النجدة من أى أحد ، ولو فهم أحد شيئًا لكان ساعده ، ولكن قبل أن نفهم قفز الرجل الذى يرتدى نصف الحصان الأعلى جاثمًا فوق العريس مُردِيًا إيّاه أرضًا إثر دقة دف عالية .

تساءلت ماهينار :

ـ ما الذى يحدث ؟

وأجابتها آسيا بشماتة :

ـ إنهم « يزفّونه » بكل معنى الكلمة .

وقالت نادية بعاطفتها المعتادة :

ـ يالمسكين ، ليتنى أستطيع أن أخفف عنه .

خلع الرجلان زى الحصان وتمتما بكلمات اعتذار راحلين ، ساعد البعض العريس للوقوف ، فيما يصيح رجل غاضب من بين الحضور بدا كوالد العريس أو شخص له مقامه ، مطالبًا بمقابلة مدير القاعة الذى حضر على عجل يتخبط فى كلمات اعتذاره ، تعجب من سلوك الفرقة ، وتعهد باتخاذ اللازم . ثم أمر بإحضار كرسى للعريس ، وكوبًا من الماء ، وقد جلس يلتقط

أنفاسه ، فيما تربت عروسه على كتفه برفق ، وقد بدا وكأن شيئًا فى الكون ليس بقادر على إصلاح مزاجه ، ولا حتى عروسه الملثّمة ، ولو كان على سجيته الآن لأزاح كفّها عن كتفه وقال شيئًا على غرار : « يا شيخة ! وبمَ نفعتِنى ؟! » غير أنه لايزال يحفظ وجود السادة الأرستقراط وعلية القوم ، أمثال السيدة التى كانت تقول قبل قليل : « ! Oh ! Oriental » ولابد أنها تقول الآن : « ! Oh my God » .

وبينما العريس جالسًا ، أحضروا مبخرة للعروس ، وطلبوا منها أن تقوم بتبخيره ، فيما يدور رجل لا علاقة له بالموضوع بدف مقلوب يجمع النقطة ، رفعت العروس المبخرة ودارت بحذر حول عريسها ، وباليد الأخرى ترفع ذيل فستانها ، لا تتعثرى رجاءً ، لا مزيد من الحوادث من فضلك ، حادثة واحدة أخرى ولا أضمن إن ظل الفرح فرحًا أم انقلب إلى مأتم ، أدّت العروس دورتها بنجاح ، فطالبوهما بتبديل الأدوار ، اتخذت العروس مقعدها ، وللحظة شعرت وجه ريفال كما لو توجّه نحونا ، فرفعت كفّى فى تحية مرتبكة ، هل ستذكرنى وتعرف من أنا ، هل ستميّز وجوهنا ، هل أصلاً تنظر نحونا ؟! ما المشكلة فى أن ترفع هذه الغلالة عن وجهها ؟!!

رفعت ريفال كفّها ترد التحية ، هكذا عرفت أنها تنظر لنا ، ولكن مهلاً ، نظرتُ خلفى ، لمَ لا تكون ناظرةً إلى الواقفين خلفنا ؟ تبًا لتلك الغلالة الغبية ! تبًا لها !

التقط العريس المبخرة وبدأ دورته بثقة مزعومة وابتسامة مستعارة ،

هبت ريح باردة فارتعشت الثريا ومعها ارتعشت الابتسامة ، دخلت سيدة غجرية ترتدى ملابس سوداء ووشاحا من رأسها يتدلى حتى أسفل ظهرها من العمر أمنحها على الأكثر خمسين ، أما نظرة عينيها فضِعف عمرها ! أى نظرة لها ! دعك من ازدحام وجهها : تجعيدات وحلقات ووشوم ، ولكنك لن تلحظ سوى نظرة عينها .

مدّت يدها بحزم فوق يد العريس ، وأمسكت بيده محرّكة إيّاها فوق رأس العروس ، تتحرك يده معها بسلاسة وكأنه بلا حيلة ، استسلام من الواضح أنه أزعجها ، لأنها منحته إحدى نظراتها الثابتة ثم جذبت المبخرة من يده منفردةً بها ، أضافت من جيب جلبابها بعض الأشياء فى المبخرة ، ثم نفثت بها ، اشتعلت نارها ، استعر وهجها ، وقد وجّهتهما بأنفاسها نحو العروس الجالسة . أزاحت العريس بذراعها الحرة ، وتقدمت من العروس ، بنظرة حازمة ، وخطوة ثابتة ، هكذا تكون الثقة ، وليس ما رأيتَ سابقًا .

الطبول تدوّى ، الموسيقى تتعالى ، موسيقى لم تُدَق فى عرس سابقًا ، سمعتها فى السينما ... حسرة عليها يا حسرة عليها ، جت رجليها ما جت رجليها ... لكن الكلمات غير واضحة ، لأن السيدة تتحدث فوقها ، لا تبالى بها ، تتمتم تمتماتها ، تشعوذ شعوذاتها ، المدعوون فى حالة سكون ، كلهم فى حالة ذهول ، الأضواء تتلاعب ، الثريات ترتجف ، وليس من هواء بارد ! العروس تتكمش فى جلستها ، تقبض يديها نحو صدرها وتضم إليها ساقيها ، إلى أين ستذهب ؟ فين أراضيها فين أراضيها ، فايتانا يا حسرة

عليها .. السيدة تعلى من صوتها ، تزيد من تعويذاتها ، تبدو وكأنما تتضرع نحو كيان لا نعلمه ، تتوسل بكل جبروتها وشموخها ، أما العروس... حسرة عليها يا حسرة عليها .. تختنق العروس بدخانها ، جت رجليها ما جت رجليها ، تكاد تسعل روحها ، يتصاعد إيقاع الطبول جدًا ، تصرخ . ولأول مرة ، تبتسم المرأة الغجرية ، وفجأة تتدلى ضفيرة سميكة من أسفل وشاحها ، ضفيرة تطال عظمة فخذها !

ينحل الطير عن رأس أم العروس ، تنفك عقدة لسانها ، تركض نحو ابنتها تدفع عنها الغجرية وتذب الدخان عن وجهها ، وتهتف طالبة كوبًا من الماء !

هنا حيث ترفع أم العروس الغلالة عن وجه ابنتها ، هنا حين تدعوها لالتقاط الأنفاس وارتشاف الماء ..

ولكنها لم تفعل !

تلتفت المرأة الغجرية إلينا ، تسعل من دخَانها الخاص حتى تدمع عيناها ، ومع هذا ، تمنحنا من بين دموعها نظرة من عينيها الزرقاوين مثل المحيط ، الفائضتين مثل النيل ، المُزلزِلتين من دون مِثل ... ألتفتُ إلى نادية :

ـ أشعر وكأنى رأيتُ هذه المرأة من قبل !

ـ وأين يمكن أن تقابلى غجرية كهذه ..

ثم ترتبك قليلاً :

ـ وإن كنتُ أنا أيضًا أشعر بذات الشىء !

ـ وأنا ...

ـ وأنا ....

يدعو منظمو الحفل الحضور للدخول فى سكون إلى القاعة ، لا تتوقعوا مزيدًا من العروض فى الزفة ، لقد أعددنا لكم فقرات لكنها أُلغيَت ، لقد دفع العروسان ثمنها ولكنهما نحس ، هيّا إلى الداخل ، إلى الداخل أيها الغوغاء المدعوون إلى حفل نحس .. هيا .... .

* * *

لتحميل مزيد من
الروايات الحصرية
زورا موقع روايات
www.rewity.com

٥

عن الضفيرة الطويلة من غير معنى

انحسرت الأضواء عن القاعة وتركزت على مدخل القاعة . ها هما العروسان متشابكى الأذرع . نعم . هذا هو الوقت المضبوط . هنا حيث يرفع عن وجهها الغلالة . هنا حيث يخبرها سعادته لأن يبدأ معها حياة جديدة : «دعينا ننس ما لاقينا فى حياتنا . دعينا ننس ما قاسينا فى حبنا . لننس حتى ما وقع فى الصالة السابقة . ولنبدأ عرسنا » . لكنه لم يفعل .

انطلقت مقدمة « أسماء الله الحسنى » الشهيرة . لحن يثير العاطفة ، وكلمات روحانية محببة ، ولحظات ترقب تذيب الروح من الاشتياق إلى يوم زفافها الخاص . أحب أن تعمل هذه المقدمة فى يوم زفافى . إنها صارت تقليدا . ونحن شعب يحب الموروث . إنها تثير الحنين . ونحن شعب عاطفى. تنطلق ضحكة فجة . تشتت انتباهى . ماذا كنت أقول ؟ نعم . إنها تجلب البركة ، ونحن شعب متدين بالفطرة ... تنطلق صرخة . يشهق الحضور ويلتفتون إلى مصدر الصوت . شاب صغير يبدو مهذبا وخلوقا . ومن غير الواضح ما الذى يزعجه بالضبط .. يطلق صرخات متقطعة . ثم صرخة طويلة مستمرة ، وكأنما تقتل أرنبته فينطلق صارخا جزعا بين الموائد قبل أن يسقط أرضا . يتشنج ويتلوى ويتراكم الزبد على جانبى فمه .

تركض نحوه سيدة تبدو مثل أمه وتردد :

« أوقفوا أسماء الله الحسنى . أوقفوا أسماء الله الحسنى » .

يهوى فنى الدى جى بقبضته فوق آلاته يقطع الصوت فى لحظة ، أراهن على أنه لم يرَ شيئًا كهذا فى عمره المهنى ، أما أنا ، فهذا أمر لا أتمنى أن أراه فى زفافى..

يهدأ الشاب ، تعلو حمرة الخجل وجهه ، وهذا يؤكد حسن فراستى حين قلت بأنه مهذب وخلوق . تتلعثم أمه بكلمات الاعتذار :

ـ إن عنده حالة نفسية ، البعض يقول : صرع .

وهذا أفضل طبعًا من أن تقول : « إنه ممسوس بالجان والبعض يقول: اللهم احفظنا » . وإذ ينشغل الحضور بالأم وابنها يتسلل العروسان فى صمت إلى الكوشة ، وكأنما قد عملا عملة .

حتى هذا الحد كان الإجهاد النفسى قد أخذ من كل منّا منتهاه ، فكوّمنا أجسادنا على أقرب مائدة كيفما اتفق ، خمسة أجساد مترهلة تلتقط أنفاسها ، أخذتُ شهيقًا عميقًا وأطلقته ، ثم التفتُّ إلى ماهينار ومن دون سابق إنذار انفجرتُ بالضحك ! نظرن إلىَّ فى عجب ، حتى آسيا الأكثر حقدًا لم تستطع إلاّ أن تتعاطف مع عروس يقع فى يوم عمرها كل هذا .. التفتُّ إلى ماهينار وحاولتُ أن أغالب ضحكاتى قليلاً حتى أستطيع أن أقول لها :

ـ أتقولين بأن « النحس سينفك والبكرة تكر » ... ها قد نحسناها نحن !

انطلقت ضحكاتهن ، حتى نادية الأكثر عطفًا على ريفال أفلتت منها ضحكة ، مسحتُ دمعةً من عينى ، وأطلقتُ تنهيدة انتهاء الضحك ، ونظرتُ

حولى ، فإذا بكل العيون تتطلع إلينا متابعةً الفقرة التالية فى أعجب فرح يرونه بحياتهم ! أصابتنى القشعريرة؛ لم أتصور لحظة أن أكون أداة لإفساد هذا الفرح وإتعاس صديقة طفولتى ... ما الذى يحدث بالضبط ؟

نظرتُ للأرض . هتفت وردة :

ـ انظرن ، انظرن ..

كانت الشاشات تعرض صورًا للعروسين يبدو أنهما التقطاها باكرًا فى الأستديو ، واو ! هل هناك جمال هكذا ؟ كنتُ أعرف هذا ، أعرف أى طفلة جميلة كانت ، ولكن اشتقتُ لأرى بعينى كيف صارت الطفلة بعد هذا العمر . ثم : كيف جرؤت أن تتوشح هكذا فى يوم عمرها ، كيف سمح لها أهلها أو عريسها أو أى شخص عاقل تعرفه ؟ هل تخشى الحسد أم تتبع سياسة تشويقية للحظة أن تكشف الغلالة ، فينطرح كل من بالعرس قتلى أو جرحى ، وأنا سأكون أولهم .

لا داعى لأذكر تعليقات البنات ، وحدها ماهينار كانت تشعر بالثقة فى نفسها كفاية كى تمسك بأيادينا وتقول :

ـ هيّا نسلّم عليها ونقرصها من ركبتها ..

اندفعنا بحماس نحوها ، لكن حالت بيننا مجموعة من الراقصات فى أثواب فرعونية ، فتراجعنا نشهد الرقصة ، توسطتهن راقصة يتجاوز عمرها ضعف أعمارهن تقريبًا ، هذه هى «الأسطى» الكبيرة إذًا .. وبرغم

السنّ تفوقهن حُسنًا ، وهنّ بعد ألف عام لن يحصلن على أعين زرقاء مثلها ، الزمن يمر مثل القطار على وجوهنا عادةً ، لكن يأتى عند بعض الناس ويتوقف ، انتظر من فضلك ، هل تعرف أنت تكلّم من ؟ تحمل فوق رأسها ميزانًا كما تحمل الراقصات الشعبيات الشمعدان ، ومع هذا بدت حركتها رشيقة إذ تتمايل وتتلوى كالأفعى على نغمات المزامير ، ثم تقدمت رويدًا تجذب بيديها العروسين لمشاركتها الرقصة ، نزل العروسان عن الكوشة وتتبعا الخطوات كما رسمتها لهما ، ثم أنزلت الميزان إلى مائدة جانبية ، وبسطت يدها نحو العريس الذى ناولها كفه ، فخلعت عنه خاتم الخطبة ، واحتفظت به فى راحتها ، ثم سألت :

ـ هل قتلت ، هل زنيت ، هل لوّثت ماء النيل ؟

أجاب العريس مُرتبكًا :

ـ لا أظن .

ـ الآن نعرف .

ووضعت الخاتم فى إحدى كفتى الميزان ، وفى الكفة الأخرى ريشة ماعت . ثقلت كفة الخاتم ، فهللت الراقصات وهلل معهن الحضور من دون أن يفهموا شيئًا . أعادت الخاتم للعريس قائلة :

ـ نجوت .

وبسطت يدها للعروس فمنحتها خاتمها ، سألت :

ـ هل قتلتِ ، هل زنيتِ ، هل لوّثتِ ماء النيل ؟

ـ لا .

ـ سنرى .

وضعت الخاتم أمام ريشة ماعت ، لكن كفة الخاتم طاشت وثقلت الريشة ، توهجت أعين الراقصات وندت عنهن زمجرات ، وتبدلت سحنة الراقصة الأولى إلى الغضب الشديد ، احمر وجهها وسالت قطرات عرق على جبينها ، ثم قالت من بين أسنانها :

ـ ثمة خطايا لا تُغتَفر ، ثمة خطايا لا تُغتَفر ...

ثم رفعت ميزانها فوق رأسها ، واستدارت عائدة ، ويبدو أن الميزان قد حلّ عقدة بشعرها ، فانسلّت ضفيرة طويلة تجاوز خصرها وتداعب فخذها .. مهلاً ، إنها تشبه ... . ألم يحدث منذ قليل أن ... . قالت آسيا :

ـ أيًا كان ! من يهتم !

دارت كئوس الشربات ، وتماوهت يدا العروسين بالكئوس بتلك الحركة المعقدة التى يتم إجبار العرائس عليها ، بحيث يصعب تشبيك الذراعين بهذا الوضع ثم يصعب فصلهما بعدها ، وأعتقد أن هذا يتطلب سيمترية عجيبة وكيمياء خاصة بين الزوجين لتتم الحركة بنجاح ، ولو قررا أن يرقصا التانجو أو يعبرا طريقًا سريعًا للسيارات ذا اتجاهين لكان أسهل . على أى

حال ، نجح العريس فى تصويب كأسه نحو شفاه العروس التى أحنت رأسها ورشفت ببراعة ، على الجهة الأخرى ، وكما هو متوقع ، سكبت العروس الشربات على قميص العريس الأبيض ، ليس أمرًا كبيرًا ، أنا أقبل بأقل الخسائر ، لكن لا يبدو أن هذا رأى العريس الذى صوّب نظرة نارية نحو عروسه اخترقت الغلالة .

ليس هذا ما يقلقنى ، ما يقلقنى هو السكّين الذى يحملونه فوق مائدة كعكة الزفاف التى تكاد ترتطم بالسقف ، يتقدم العروسان من المائدة ، تمسك العروس السكّين بكفّها ، ويضع العريس كفّه فوق كفّها ، تجحظ عينى وأكتم أنفاسى ، وما هى إلاّ لحظات حتى أسمع صرخات العروس ثم ترفع إصبعها نحو فمها تلعق الدماء ، أزفر الخلاص ، حمدًا لله ألم يقع أكثر من هذا ، لكن لا يبدو أن هذا رأى العروس التى سكبت نظرة دموية نحو العريس لطّخت الغلالة .

إلى هذا الحد كانت الأجواء مشحونة والكهرباء فى الجو ، وبدون تدخّل من نادية ، رأى الأهل والحضور ومنظمو الحفل أنه إن كانت هناك نية لعقد القِران الليلة فإنه يجب أن يحدث الآن حالاً وإلاّ فلا أحد يضمن شيئًا .

* * *

٦

عن الحمّام الذى لن تخرج منه

مأذون من دون عمامة ، وعروس دامية الإصبع ، وعريس لاوٍ بوزه . هذا كل ما يتطلبه الأمر . أطلقت أم العروسة زغرودة طويلة بينما يتجه العروسان لمائدة كتب الكتاب . ياه .. طانط فاطمة . إنها مثال جيد للناس الذين يمر الزمان مثل القطار على وجوههم . لكنّ صحتها ... ما شاء الله . ممتازة . والزغرودة للآن لم تتوقف . يلجم لسان أم العروس فى الزغرودة ، وينحاش صوتها .

أم انحشر لسانها . وأب نسى بطاقته . وشاهدان مفقودان ... لا مشكلة ، سنتدبر الأمر . أفتى المأذون من دون عمامة . بجواز ولاية الولى الأبعد للعروسة وهو أخوها . فى حالة تنازل الولى الأقرب وهو أبوها . وفى عرس كهذا لن يعدموا شاهدين .

تنحنح المأذون للخطبة وأمسك المايك . ولكنه مال على العريس وقال :

– يا بنى .. أنا أرى أن العروس ملثمة . فإما تكشف عن وجهها ، أو تمضى أباها على كمبيالات !

نظر له العريس موازنا الفكرة ، فيما انطلق المأذون والحضور بالضحك ، يشاركهم فتى الدى جى الذى أراد أن يضفى لمسته الخاصة من خلال مؤثرات النكات الشهيرة :

« تم ترا را رم .. تم تم ! » .

أسكت المأذون الدى جى بإشارة من يده ، وارتسمت الجدية على ملامحه بينما يقول :

ـ يا بُنَى ، إذا كان هناك مشاكل بينكما ، فمن الممكن أن تُحلَّ وديًا ، ولا داعى للزواج ![1] ...

« تم ترا را رم .. تم تم ! » .

ـ فهل تعلم بأن الفارق بين الزواج والموت ، هو أنه ليس من الضرورى إذا مِتَّ أن تدخل جهنم ؟![2]

« تم ترا را رم .. تم تم ! » .

ـ أنا فقط أنصحك ، لكى لا تعود فتقول لعن الله الذين تزوجوا قبلى والذين تزوجوا بعدى ؛ فالذين تزوجوا قبلى لم ينصحونى ، والذين تزوجوا بعدى لم يسألونى !

« تم ترا را رم .. تم تم ! » .

ـ وإذا لم يكن الزواج جريمة ، لما عيّنوا له شاهدين !

« تم ترا را رم .. تم تم ! » .

---

(١) كاريكاتير للفنان مصطفى حسين .

(٢) مقولة للكاتب محمد عفيفى .

ضجت القاعة بالضحك وتحوّل العرس إلى ستاند أب كوميدى ، وقد ساهم الضحك فى تخفيف الكهرباء بالجوّ ، ثم هدأ الحضور وختموا الضحك بالعبارة الإحترازية : « اللهم اجعله خيرًا » ، كفّ المأذون عن المزاح ، واكتست ملامحه بالرزانة بينما يسأل العريس :

ـ والآن ، انتهى الهزل ، ودخلنا فى الجد ، فهل تريد أن تتراجع عن عقد القِران ؟

أجاب العريس مستنكِرًا على الفور :

ـ ماذا ؟ لا ، بل أنا مستعد .

ـ وهل تعرف أوّلا ما معنى « القِران » ؟ إنه الاقتران ، سوف تحصل على قرين يلازمك مثل ظلك ، يجرى فى دمك ، يبقى لك مثل العمل الردىء بنهاية المطاف . سوف يحصى عليك أنفاسك ، نظراتك ، همساتك ، سكناتك ، سقطاتك ، زلّاتك ، شهواتك ، رغباتك ، ومنذ الآن فصاعدًا عليك أن تراقب حتى أحاديث نفسك . كم كلّفك هذا الخاتم ؟ لا يهم ، لأنك ستظل تدفع أقساطه بقيّة عمرك ، وليتك تملك شيئًا ، الشحّاذ فى الشارع أغنى منك ، لأن ممتلكاتك لم تعد ملكك . ستذهب السكرة وتأتى الفكرة ، فكرة أنك محاصر لآخر عمرك ، أنت لم تعد حرًا بعد الآن ، بيت وزوجة وأولاد ومصاريف ومسئوليات وعمل وسخرة وساقية لن تخرج منها إلا بالممات ، فهل سيتركونك ؟ بل سيوصلونك إلى باب القبر ثم يرثونك .. لا يكفيهم الأقساط التى كنت تسددها من عمرك وعرقك كل شهر فى الميعاد . إنهم ينحلون وبرك فى كل يوم

حتّى إذا ما أفقت لنفسك ذات يوم لا تجد ما تحمل عليه نفسك للنجاة ، لا للإفلات ، لن تستطيع التملّص حتّى لو فكرت فى كل يوم فى الخلاص ، حتّى لو أسهبت الحراس ، فإن الفرص الثانية شحيحة والخروج من الحمّام الذى دخلته بقدميك لن يكون خيارًا متاحًا ، ستغرق فى البانيو على الأرجح ، تريد المقاومة ، تريد الصعود لأعلى لالتقاط الأنفاس ، ولكن هناك رابطًا يطوق عنقك ، يلجم فكك ، يجذبك لأسفل ، هل تعرف ما هو هذا الرابط ؟ هو : « الرباط المقدّس » . ولكنك لن تدرك هذا الآن ، ستدركه وقد انقضى الهزل ، ودخلنا فى الجدّ ، فهل تريد التراجع الآن ؟

هذه المرة لم يجب العريس باستنكار ، ولا أجاب على الفور ، ولا أجاب على الإطلاق ، أجابت أم العروس بتمتمات لم نفسّرها عن لسانها الملجوم ، لكن يبدو من إشاراتها أنها لم تكن سعيدة .. على أى حال ، تدخل كبار العائلتين لإمضاء الأمر ، بعد أن سحبوا المايك من المأذون .

ظهرت سيدة فى منتصف العمر ، سمعتُ بعضًا من أقارب العروس يتساءلون إن كانت من أقارب العريس ، وبعضًا من أقارب العريس يتساءلون إن كانت من أقارب العروس ، وإن لم تبدُ أنها تقرب لأحد على هذا الكوكب ، وإن كنتُ أظنُ أنها جاءت مع المأذون ، فبمجرد العقد ، تناولت كف العريس ودسّت إصبعه فى الحبر ، ثم طبعت بصمته فى المكان المحدد من القسيمة ... قال المأذون بطريقته الهزلية :

– ما شاء الله ! هل الهانم مباحث ؟ إنها تعرف عملها جيدًا ...

لكن السيدة ـ التى ليست مدعوة ولا من طاقم العمل ولا جاءت مع المأذون ـ لم تكن من الطراز الذى يمزح ، صوّبت نحوه نظرة جادة من دون ابتسامة ، أربكت المأذون من دون عمامة ، ثم تناولت كف العروس ، وبدلاً من دسّها بالحبر ، عصرت جرحها حتى سالت دماؤه ، تأوهت العروس وحاولت تخليص يدها ، ثار والدها وعريسها والإخوة ، لكن السيدة ـ التى لم تكن مدعوة ولا من طاقم العمل ولا من الطراز الذى يمزح ـ لم تكن أيضًا من الطراز الذى يمكن لشىء بالكون أن يوقفه ، يكفى أن تلقى إليكَ نظرةً من عينيها الزرقاء حتى تطيع صاغرًا ، وهناك شعور يغمرنى بأن نظرة عينيها لا تخصّها ، وإنما تخصّ كائنًا يسكن جسدها ، وعمره أضعاف عمرها ، جذبَتْ إصبع ريفال وضغطته بين أصابعها موجّهة إياه نحو موضعه بالصفحة ، سالت قطرة دم يتبعها قطرة أو قطرتان من شعر السيدة المبلل ، وما إن حصلت على البصمة حتى التمعت عيناها بالشهوة ، وتدلّت ذات الضفيرة الطويلة متراقصة حول رجليها ... .

هببتُ واقفة .. أجلستنى وردة من يدى :

ـ هل رأيتِها يا ليلى ؟

ثم هزّتْ رأسها وقالت :

ـ كأنى رأيتُها سابقًا ..

وقالت نادية :

ـ ألا تشبه الراقصة والغجرية ؟

صخخت وردة :

ـ بل رأيتها قبل الليلة .

قلت أعتصر رأسى :

ـ وأنا كأنى رأيتها ، لكن : أين ومتى ؟

وقالت آسيا :

ـ وأنا رأيتها ، لكنى لا أشغل بالى ؛ إنها بلا أهمية .

تمتمت وردة بصوت خافت :

ـ آمل ذلك ..

واكتفت ماهينار بقضم أظافرها . انساب بالأثير لحن رومانسى .. آه .. إنها فقرتى المفضّلة ، الآن حيث يحتضن العريس عروسه من خاصرتها ، الآن حيث تسند راحتيها إلى صدره ، الآن حيث يرفع الغلالة عن وجهها ويقول لها : «راقصينى لبقيّة عمرى» ، لكنّه لا يبدو أنه ينوى أن يفعل فى حياته .

ها قد بدءا يهمسان لبعضهما . أنا أقول إنه يقول لها شيئًا من طراز :

ـ هل تجيدين الرقص ؟

ـ لا ، هذه أول مرة .

ـ فحذارِ أن تدوسى على قدمى ؛ إن الحذاء جديد .

أو شيئًا من طراز :

ـ ما هذه العقدة أسفل يدى ؟

ـ إنها من الجونلة .

ـ جونلة ! وهل ترتدين مع كل هذا جونلة ؟ حسنًا !

بينما يظنهما الحضور يتهامسان بكلمات الوجد والهيام . على أى حال ، سيكون من الرائع فعلاً ألاّ تدوس على قدمه ، الأمر لا يحتمل .

أُطفئت الأنوار ودلفت مجموعة من العرائس الصغار فى أثواب زفاف منمنمة وطرح من التل الأبيض تزيدهن بهاءً ، وتمسك كل منهن شمعة تكاد تكون طولها ، تكاد تحرق نفسها ، لماذا يتركون الأطفال يلعبون بالنار ، لا أدرى ! أو أنا التى صرتُ حذرة أكثر من اللازم . تحاوطن العروسين متمايلات بدلال مع اللحن الرقيق . يجذبن أنظار نادية التى يرق صوتها قائلةً :

ـ انظرن ، يبدين كالملائكة ، لو عندى ولد لألبسته زى ضابط أو قبطان فى مناسبة كهذه ، ولو بنت كنتُ ألبستها عروسة كهاته الحسناوات .

ـ رزقكِ الله يا نادية .

ترجع ماهينار بكرسيها للخلف ، وتوجّه أذنيها باتجاه المائدة المجاورة ، ثم تعود فتقول بمط المقاطع :

ـ آه ! الآن أفهم .

ـ وما الذى تفهمينه ؟

ـ أفهم لماذا لا ترفع الغلالة .

أتدخل فى الحديث بحماس :

ـ أقبّل يديكِ أن تخبرينى ..

ـ يقولون إنها أصلاً منتقبة ، وإنها اعترضت على إقامة عرس ماجن كهذا ، لكن عريسها أصر فاستسلمت لرغبته .

داعبتها الفتيات :

ـ مرحبًا رويترز !

ـ ها قد عدتِ لنشاطك السابق .

لم تهتم ماهى ، كانت قد غابت ثانيةً مع المائدة المجاورة ، أما أنا فسعيدة بما حصلتُ عليه ، أية إجابة على الأسئلة السرمدية التى بلا إجابات ، سأقبل بها . عادت ماهينار وأقبلت علينا بمقعدها ورفعت يديها فوق رؤوسنا تدعونا للاستماع :

ـ العاوَ القادم ، اقتربوا .. عندى خبر خطير ..

ـ وما هو ؟

ـ بعد هذه الرقصة سيدعوننا إلى بوفيه مفتوح !

ـ واو !

ـ تسلم أخبارك !

أتثاءب فى رضا .. أفضل شىء يفعلونه بعد يوم كهذا أن يمنحونا وجبة ساخنة ثم يتركونا ننعم بالفراش ، انتهت الرقصة ، تفرّقت العرائس الصغار باستثناء طفلة واحدة بقيت تمسك بالشمعة إلى جوار العروس ، ملامحها ليست بالغريبة علىَّ ، ربما هى أخت العروس أو شيئًا كهذا ، لو جاءت فى عَشر السنوات الماضية فلا شك أننى لن أعلم بهذا ، انفتحت أبواب البوفيه ، ولكن قبل أن يسمحوا لنا بالدخول صاح فنِّى الدى جى :

ـ أين صديقات العروس ؟ أدعو صديقات العروس للاصطفاف للإمساك بباقة الورد !

اصطففنا مع بعضٍ من قريبات العروس وصديقاتها الحقيقيات ، والتفتَتْ العروس تدير إلينا ظهرها ، وإن كانت فى كل الأحوال لن ترانا عبر عصابة عينيها هذه ، شحنتُ حواسى الخمس عازمةً على التقاط الباقة ، كما استخدمْتُ حاستى السادسة للتنبؤ عن موضع سقوطها ، بسطتُ يدى ولكنها وقعت فى يدٍ أخرى ، التفتُّ فأصابتنى الصدمة : كانت سيدة أكبر منّا بكثير ، أمازالت عانسًا ؟ تلقّتْ الباقة على صدرها ، ثم رفعتها بين يديها فى ظفر ، فى ذات اللحظة التى تدلت فيها ضفيرة طويلة من أسفل رأسها ، أخفضت الباقة الندية ، ثم التقطت الندى بأصابعها العشر وراحت ترطّب أطراف

أناملها بأبهميها جيئة وذهابًا بينما تنظر إلينا . أشعرتنى الحركة الرتيبة للأصابع مع نظرة العين الثابتة بالتهديد ، مثل دب يعتصر أنامله انتظارًا لتناول وجبته ، ولكن هل يملك الدب خمسة أصابع باليد ؟ وغالبًا لديه أقدام وليست أيادٍ ، أيًا يكن ! هذه مسألة نناقشها لاحقًا !

توجّه المدعوون إلى البوفيه ، وجذبتنى نادية من ذراعى :

ـ هيّا لنأكل ..

لكن عينى مثبّتة على ذات الضفيرة لا تغفل عنها حتى غابت فى قاعة البوفيه ، التفتُّ إليهن :

ـ هل رأيتها ؟

هتفت نادية فى فزع :

ـ نعم ، نعم ، أراها

لكنها كانت تنظر باتجاه آخر ، كانت تنظر نحو الطفلة فى ثوب العروس والطرحة وقد اقتربت من العروس اللاهية فى حديث مع عريسها ، ورفعت الشمعة بين يديها إلى ما فوق رأسها ، وكأنما تعزم على إلقائها عليها ، صاحت نادية :

ـ يجب أن نفعل شيئًا ، لنلحق بها قبل أن تحرق ريفال !

وريفال توليها ظهرها ، وحتى وإن واجهتها ، فهو طبع العرائس عادة ،

تزغللهن الأضواء ، وتسرقهن الفرحة ، ولا يدرين شيئًا عن شيء بعدها ، كذلك العريس لا يبدو منتبهًا ، بالرغم من أنها بمواجهته وبجوار عروسه . يمكننى أن أقول إنها طفلة لا تفقه شيئًا ، لكن الحقد الذى بعينها يجعلنى أقول إنها أكبر عمرًا ، وتزمع أمرًا .

نركض نحوها ، تنتبه الطفلة وتلتفت إلينا ، وقبل أن نصل لها ، ودون أن تخفض يدها ، بدّلت قليلاً من خطتها ، فبدلاً من أن تقذف بالشمعة فوق رأس ريفال ، قذفت بها فوق رأسها !!

أصرخ ، أتصلّب فى مكانى تحاوطنى أذرع الفتيات ، وبدلاً من أن ينظر الحضور إليها ينظرون إلىَّ أنا ، يترك البعض أطباقهم على الموائد ويتقدمون إلىَّ ، يسألون رفيقاتى :

ـ ما بها ؟

تشرن نحو الطفلة المحترقة إلى جوار العروس ، حتّى العروس تحتمى بعريسها وتكتم صراخها ، ولا أحد من الحضور يبدى انفعالاً تجاه الطفلة ... صرخت وردة مرددة :

ـ لا أحد يراها غيرنا ! لا أحد يراها غيرنا !!!

حاولت نادية تهدئتها :

ـ ريفال أيضًا تراها ، لسنا وحدنا .

ولكن وردة توقفت وقالت بصوت أرجفنى :

ـ ريفال أيضًا منَّا .

حاول الحضور تهدئتنا ، من دون أن يُبدوا اهتمامًا حقيقيًا لمعرفة ما الذى يحدث ، هم يعرفون أن هذا الفرح شؤم مسبقًا ، لا يريدون غير أن يتناولوا أطباقهم ويخلدوا للنوم لينتهى هذا اليوم العصيب ، أجلسونا إلى مائدتنا وأحضروا لنا أكواب ماء ، كدت أرفع الكوب إلى فمى ، غير أنى اصطدمت بأعين السيدة ذات الضفيرة وباقة الورد على المائدة المجاورة إذ تتناول طعامها ، وقد رفعت إلى كأس عصير محييةً حين التقت أعيننا ، أخفضتُ عينى ، وأدرت ظهرى ، وعدتُ أرفع الكوب بين يدى ، وقبل أن أسكبه فى فمى ، أمسكتْ به أنامل منمنمة ليد بضّة ، تجمد الدم فى عروقى وتجمدت صديقاتى حتى صرنا مثل تماثيل الشمع بالمتحف ، صعدتُ بعينى عبر الذراع اللينة نحو الوجه المحترق داخل الطرحة المشتعلة ، تركتُ الكوب ورجعتُ بمقعدى للوراء مزمجرة ، أمسكت الطفلة بالكوب وسكبته فوق رأسها أطفأت حريقها ، وبعد أن سقطت الطرحة ، لم يعد برأسها أية شعرة ، الآن وجهها واضح ، كما كان سابقًا ، الآن رأسها خالٍ ، كما كان من قبل ، والآن نعرفها كما عرفناها فى الأوقات الخالية ...

* * *

٧

عن البنت التى لم تعد قرعة

« يا مطرة رخى رخى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

* * *

تتملص الفتاة ، تتلوى ، تبكى ، تتحاشى الضوء ، الوحل ، الخنفساء ، الماء ، رذاذ المطر ، هذا أمره هين ، حين تنشر ملابسها ستجف فى الصباح . لكن ماذا عن رذاذ الدموع ؟

ولا المطر ينفذ ، ولا الدموع تجف . متى تنتهى هذه اللحظة ، لقد استطالت أكثر من أية مرة ، أقسى من أية مرة . عفوا ، مهلا ، الأقسى لم يقع بعد .

مدت زعيمة الشلة يدها تجذب الطرحة البيضاء عن الفتاة ، فتبدت رأسها الملساء . رفعت الفتاة يدها تخفى رأسها ، تمسح دمعها ، تستعيد حجابها ، لكن الحجاب كان ينتقل مع الضحكات بين الفتيات :

« بنت أختى قرعة قرعة ..

مفيهاش ولا حتة شعرة ... » .

هاهاها ... قرعة .. هاها .. هذا الحجاب لا يخفى شيئا ، التقطيه ، هذا الحجاب لا لزوم له ، التقطيه ، تدور الفتاة بينهن تستعطفهن أن تسترد

حجابها ، تستر رأسها ، تحفظ كرامتها ، تنتقل الطرحة من يد ليد ، تتعلق الفتاة على يد يد ، قدم قدم ، تسقط بالأرض .

« رخى ...

قرعة ...

رخى ...

ولا حتة شعرة » .

تجلس إحداهن إلى جوارها ، وتهتف :

ـ شلة العاوَ القادم ، سكـــوت !

تُنزِل عن ظهرها حقيبتها ، تخرج منديلًا تمسح رأس الفتاة المحنية، فترفع إليها نظرة مستفسرة عُجِنَت فيها الدموع بالدهشة ، تخرج الفتاة مقصًا وصمغًا كانت أحضرتهما لحصّة الأشغال ، تلوى يدها خلف عنقها تجلب بعضًا من شعرها السائح إلى الأمام وتداعب به الرأس الخالى ، شعر أملس يداعب رأسًا أملس ، هذا لا يؤلم ، فعلامَ البكاء ؟ ثم قصّت الفتاة أطراف شعرها بالمقص ، وألصقتها فى الرأس الصلعاء بالصمغ ، ما رأيكِ الآن ؟ لم تعودى قرعة قرعة ! عِندَك حتة شعرة .. تنطلق ضحكاتها ، تنفجر ضحكاتهن ، قرعة قرعة ، ولا حتة شعرة ...

هاهاها

هاهاها

يتوقف الضحك فجأة ، تقول الزعيمة بغلظة :

ـ هذه تحية العاوَ القادم .

* * *

لتحميل مزيد من
الروايات الحصرية
زوروا موقع روايات
www.riwaya.ga

٨

عن الخطايا التى لا تُغتفَر

اجفلت إذ افقت من خواطرى فأبصرت الطفلة أمامى وقد أخفت وجهها بأناملها ، ثم ازاحتها قائلة :

ـ عاو !!

ثم انطلقت تمرح بين الموائد ، ودارت بيننا أطراف حديث مبتورة :

ـ أتقولين بأنها .... ؟

ـ لاشك أنها .

سألت آسيا فى سماجة :

ـ أنها من ؟

أجابت ماهينار فى شرود :

ـ لو أنها فزورة لقلت : أحلام .

هتفت آسيا وكأنما لا تريد أن تتصور الأمر :

ـ غير ممكن ، غير معقول ، أحلام ماتت منذ زمن بعيد ، ولو كانت على أيد الحياة الآن لكانت بمثل عمرنا وليست محض طفلة .

ـ فكيف تفسرين الشبه ؟

ـ يخلق من الشبه أربعين .

ـ وحتّى الصلع ؟

ـ لقد احترق شعرها للتوّ مع الطرحة .

إلى هنا كان قد ضاق صدرى ، هتفتُ بآسيا :

ـ من الجيّد أنكِ لاحظتِ أنها احترقت ونجت بكوب ماء ، والطريف أنه لا أحد لاحظ الحريق ولا حتّى الفتاة غيرنا ، لا أفهم من أين تحصلين على أعصاب لتتكلمى بهذه البساطة ؟

تتدخل نادية :

ـ على أى حال ، دعونا نغادر ولينتهِ الأمر .

نلملم أغراضنا ، وعينى على الفتاة تتواثب بمرح بين الموائد ، انحنت تلتقط بقايا الطرحة البيضاء ، تضعها فوق رأسها ، تجذب باقة العروس من أمام السيدة ذات الضفيرة ، وتركض إلى جوار العريس الذى كان يستعد لأخذ صورة منفردة ، ولكن لا أظنها ستبقى منفردة بعدما أبرزت الباقة ، ورفعت كفها لتطال بأناملها الدقيقة كفّه العريض ، ثم ابتسمت فى سعادة .

انطبعت الصورة فى ذهنى ، ومع هذا فإن الكاميرا التى اقتربتُ من خلفها ببطء لم تُظهِر كل هذا ، المحظوظ ، بقيَت صورته منفردة كما أراد ، كما استعاد حبيبته القديمة !

هزّت نادية ذراعى وسألتنى :

ـ ليلى ! ليلى ! لماذا لا تردى ! هل أنتِ مستعدة للمغادرة .

أمسكَ بذراع نادية أقرَبها من المشهد ، وأهمس لها :

ـ نادية ، ألا يذكَركِ اسم العريس بأحد ؟

بحثت فى دائرة معارفها فى ثانية :

ـ فارس ؟ لا ، لا أذكر أنى أعرف أحدًا بهذا الاسم ..

ـ إجابة خطأ ، استهلكى أكثر من ثانية يا نادية فى التفكير ، تذكّرى جيّدًا : فارس عبد العزيز علاّم ...

تكرر خلفى :

ـ فارس عبد العزيز ع ... .

ثم تشهق مقاطعةً نفسها . نعم تذكره ، نحن نذكر رفقاء دراستنا الأوائل وبأسمائهم الكاملة ، حين كانت الذاكرة فارغة والبديهة حاضرة ، ولكثر ما نادوا عليهم فى كشوف الغياب ، أمّا لو نادوا الآن فسيجدون خامسة أول حاضرة ، وحتّى الموت لن يُعتَبر حجّة غياب .

ومن خلفنا البنات :

ـ فارس خاصّتنا !

ـ فارس أيام زمان ؟

ـ فارس أحلام .

هل استطاعت ريفال أن تحتفظ به منذ الطفولة وحتى جعلته يتزوجها اليوم ؟ ليس مُستبعَدًا ، فالذى جعلها تتمكن من خطفه من أحلام منذ البداية يجعلها بقادرة على الاحتفاظ به للنهاية .. أنا فقط أسجّل دهشتى !

ترتجف وردة :

ـ ما معنى كل هذا ! وهل عادت أحلام لتستعيد حبيبها ؟

وأنا لا أحب الأغبياء ، الذين يقبلون بالحلول الرخيصة لطمأنة أنفسهم ، ألتفتُ إليها بحدّة :

ـ وهل حقًا تعتقدين أنها ما عادت إلاّ من أجله ؟

يعلو نشيج وردة ، فى حين تجذبنا نادية للخارج :

ـ لنغادر ، لنغادر .

نتحرك نحو الباب ، يوقفنا نداءً لا يخصّنا :

ـ أحلام !

هزّ النداء الحازم أرجاء المكان وأرجفنا فى مكاننا ، التفتُّ فإذا بالسيدة ذات الضفيرة الطويلة إلى جوارنا ، أسمع لقربها تقطيرًا مثل تقطير الماء من الصنبور ، هزّت برأسها نفيًا وتابعت حديثها إلى أحلام :

ـ كونى فتاة مهذبة ، وتعالى هنا .

تساءلتُ بشكل تلقائى :

ـ هل هى ابنتك ؟

أجابت بشكل أكثر تلقائية :

ـ بل أنا أمها .

لم أعقّب ، لم تفعل واحدة منّا . أسمع لقربها خريرًا يشبه خرير الماء فى النافورة ، أنظر إلى أسفل قدمها أرى بركة من الماء ، أنا أعرف هذه المرأة ، كان يجب أن أعرفها منذ البداية ، إن الوجه يختلف فى كل مرة ، لكنها ذات العيون الزرقاء ، ذات المرحلة العمرية وذات الضفيرة المتدلية ... ثم دومًا الماء ، دومًا تتصبب دمعًا أو عرقًا أو قطرات ماء ..

عقدتُ اتفاقًا ضمنيًا مع البنات من دون كلام ، سنسير بظهورنا ببطء للخلف ، دارت عينى فى المكان بينما أسير للوراء ، كل الرؤوس منكفئة على الصحون ، ما الذى كان بالطعام ؟ كل الشعور عائمة فى الشوربة حتى يختلط عليك الأمر ، هل جاءت الصحون بالشعر ، أم اكتسبته من شعور المدعوين ، الخدمة هنا ليست خمس نجوم ، ولو خرجتُ من هنا فلن أعود ثانيةً ، هذا .. « لو » .

فسختُ الاتفاق الضمنى ، التفتُّ وانطلقتُ ركضًا نحو الباب ، تتبعنى الفتيات . وهناك ، كانت فتيات الرقصة الفرعونية يغزين القاعة ، تقطر من شعورهن الماء ، وتوصد آخرهن الباب .

الأبواب الموصدة ترتج فى أماكنها على إثر خبطاتنا ، أركض إلى فتى الدى جى بالركن :

ـ افتحوا الأبواب ! افتحوا الأبواب ! لِمَ تغلقونها !

لا يستجيب ، أهزّه بيدى فتسقط رأسه على أجهزته مُطلِقةً زغرودة إلكترونية ، أبحث بعينى عن شخص متيقظ ، شخص متيقظ ! يحضر نادلاً جَزِعًا على الصراخ ، لكن إحدى الراقصات فى الملابس الفرعونية تتلقاه بين ذراعيها ، تقيّده بخصلات شعرها ، ثم تجرّه إلى بعيد .. نشجت العروس من تحت الغلالة ، وهتف العريس :

ـ ما الذى يحدث بالضبط ؟

لاحقته واحدة من الراقصات الفرعونيات وقيّدته بخصلاتها ، وتوجهت الباقيات كلّ إلى شخص متيقظ من الحضور : الفتى الكان ممسوسًا ، المأذون الذى كان يستظرف ، رجل على باب قاعة الطعام قد تأخر فى إحضار طبقه ، شخص على باب الحمام قد منعه القولون من تناول العشاء ، محظوظين مثل هؤلاء ! أكرر النداء بلا إجابة ، وحدها السيدة ذات الضفيرة اهتمت لشأننا ، وحدها السيدة ذات الضفيرة هدّأت من روعنا :

ـ لا ، لا ، إذا أردتن الخروج فلن يكون عبر الباب ...

ـ فعبر ماذا إذًا ؟

ـ عبر النيل .

قالتها فى بساطة ، قالتها فى هدوء ، قالتها وأشارت إلى أسوار القاعة الفسيحة التى تطل على النيل . ثار النيل وضربت أمواجه أسوار القاعة ، ارتجت الباخرة واستندنا إلى بعضنا ، اغرورقت عينا ذات الضفيرة بالدموع ، رفعت كفيها فى تضرّع وارتجف صوتها تأثرًا إذ تقول :

ـ إنه ينتظر منذ زمان ، إنه ينتظر منذ عام ، وفى هذا الموعد من كل عام يجب أن يحصل على مراده .

يعمل عقلى سريعًا ، أغسطس ، منتصف الشهر ، قالت ماهينار كالمنوّمة :

ـ لو أنها فزورة لقلتُ : «عروس النيل» .

لكن من عروس النيل ؟ أيّنا عروس النيل ؟ صاحت ماهينار فى هيستيريا :

ـ أنا لا أصلح لأكون عروس النيل ، لست الأجمل ، لست الأشجع ، كما أنى لم أمل من الحياة بعد ، لا أريد أن أموت ، لا أريد أن أموت ... .

ماهينار قالت ما أريد قوله بالضبط ، وقالت وردة بصوتها الرقيق من بين دموعها :

ـ يجب أن أروّح الآن حالاً ، لقد تأخر الوقت ...

ثم جاشت بالبكاء ، وهذا شىء أريد عمله أيضًا ، ربتت نادية على كتفها ، أمّا آسيا فلم يطرف لها جفن . مسحت ذات الضفيرة طرف عينها ، واستعادت صلابتها قائلة :

ـ التى تريد أن تخرج من القاعة فلتقفز فى النيل ، والنيل كريم ، سوف يقبل بأول أضحية .

ثار النيل فوق ثورته ، غلا الزبد فوق أمواجه ، وأبرقت السماء . حتّنا بيديها مشجّعة :

ـ هيّا ، من تريد الخروج ؟ من تريد أن تتوّج نفسها وتفدى رفيقاتها ؟ لتقفز الآن حالاً فى النيل ..

بالتأكيد لم نُبدِ حماسًا ، من قال إننا نريد الخروج ؟ جمعت ذات الضفيرة كفّيها مبتسمةً :

ـ أو .. لتأتى تبادلنى بعض الحديث .

أمسكَتْ بكف الطفلة وقطعَتْ طريقها نحو إحدى الموائد تاركةً أثرًا من الماء خلفها ، اتخذَتْ مقعدًا وأجلست الطفلة إلى يمينها ، ثم فرقعت بإصبعيها لإحدى مساعداتها :

ـ أحضرى ريفال .

أحضرت المساعدة العروس وأجلستها إلى يسارها ، وقبل أن تنطق أو تعترض كانت الضفيرة الطويلة تلتف حولها مثل ثعبان أبوا يحتجز ضحيته ويعتصرها . وناولتها مساعدة أخرى شيئًا غريب الشكل فوضعته فى منتصف الطاولة ، دققَتْ فإذا بها ساعة رملية ، ذكّرتنى بملاك الموت ، ولكنّها وإن امتلكَتْ ساعة ، فإنّه لا يملك ضفيرة ، وهذا أمر مطمئن ، كل شىء جيّد ، كل

شيء يمكن احتماله إلاّ هذا الصوت ، وقع سقوط حبّات الرمل من القنينة العليا إلى القنينة السفلى ليس لطيفًا ، بالأحرى يدفعنى للجنون ، ويمكننى أن ألقى بنفسى فى النيل حالاً لأخلص من هذا العذاب ، لماذا هى ساكتة ، لماذا لا تقطع الصمت ؟ نظرَتْ ذات الضفيرة إلى الساعة وقالت باستجداء ضعيف :

ـ قليل من الوقت قبل منتصف الليل ، ما يكفى لوصل الشوق ، ولم الشمل... فهلّا سمحتن لى بهذا الشرف ؟

صاحت ماهينار وقد تلفت أعصابها :

ـ ما الذى تقولينه أيتها المرأة المجنونة ، وهل نعرفك مسبقًا لنصلك ونلم شملك ؟

تغيّر صوت ذات الضفيرة ، وقالت باقتضاب :

ـ اهدئى أيتها الحلوة ، لا أريد أن أستخدم القوّة .

ـ أنا والدى مركزه مهم وإذا مسستِ شعرة منى سأرسلكِ فى داهية ..

مدّت نادية يدها تسد فم ماهى ، ولكن كان قد تأخر الوقت . أنا أعذرها ، إنه تأثير الساعة ، زمجرت السيدة اللعينة وتشنّجت يداها ، طقطق شعر ماهينار فوق رأسها ، وقرقع مثل قرقعة الماء المغلى ، ثم راح يقطر ببطء فوق كتفيها ، القطرة تتبعها صرخة :

ـ نار ، نار ، يحرقنى !

حاولتْ أن أرفع شعرها أو أبطّن كتفيها ، لكن اللسعات طالتنى :

ـ سنفعل ما تريدين ، لكن كَفّيه عنها ، كَفّيه عنها ... ..

ـ لا تخفن .

توقفت صرخات ماهى ، وعادت السيدة إلى حنانها المزعوم ، فنادتنا قائلة :

ـ تعلن ، تعلن يا بناتى إلى المائدة ، لا أرغب بأكثر من بعض الحكى ...

اخترقَتْ لفظة «بناتى» أذنى ، لا أستسيغها ولكن لا بأس ، تظل أفضل من استخدام العنف ، تقدمنا ببطء نتخذ مقاعدنا ، تطلعتُ حولى ، كل العيون المتيقظة الباقية تتابعنا بلهف أعلى الأجساد المقيدة . ابتلعت ريقى وبوجل سألت :

ـ ما الذى ستفعلينه بنا ؟

ـ لا أريد أكثر من عروس النيل .

ـ فهل ... . هل ستختارين من بيننا عروسًا للنيل ؟

رفعت يديها فى إباء :

ـ حاشانى أن أختار لـ حابى ..

ثم أشارت إلى ريفال وأردفت :

ـ حابى قد اختار عروسه وقضى الأمر ، ألم أقل لكنّ ألاّ تخفن ؟

ارتجفت ريفال وحاولت التملص صائحةً :

ـ لا ... لا ... . ولماذا أنا ؟ ولماذا أنا ؟ كلّنا سواء ، كلّنا سواء !

انتبهت السيدة وأولتها اهتمامها وكأنما قد وجدت ضالتها ، فسألت بتمعن :

ـ كلكن سواء فى أى شىء بالضبط ؟ !!

أحنت رأسها وقالت :

ـ فى .. ذاك الذى وقع .

رفعت السيدة كأسها وقالت :

ـ هذه هى الروح التى أحب أن نبدأ بها جلستنا للم الشمل .

اشرأب فتّى بعنقه وصاح :

ـ فى أى شىء بالضبط ؟ أفهمونا ذاك الذى تتحدثون عنه .

إنه الفتى الممسوس ، مسكين ، لا يزال يأمل بالفهم ! لم تعره السيدة اهتمامًا وقالت :

ـ دعونا نتحدث يا بناتى ، لماذا لا تبدأن بالحكى ؟

قالت آسيا بسماجة :

ـ عن ماذا نحكى ؟

ـ عن الشعور ..

ـ هاه ! الشعور ؟ أجئتِ تمزحين ؟

ـ ليست فقط الشعور التى باتت تهترئ وتسقط وتجن وتنفر وتفر وتنفر وتتصرف بطريقة تدير الرؤوس ، ليست فقط الشعور التى بالرؤوس ، وإنما الشعور التى بالقلوب ، دعونا نتحدث عن الأحاسيس : لماذا ندمى أحاسيس طفلة صغيرة يتيمة مريضة وعلى حافة الموت ، لماذا لا نتخلى ببعض الشعور ؟

ارتبك صوت آسيا ، وإن لم تتخلَّ عن المراوغة :

ـ مازلنا لا نعرف عن ماذا نحكى ؟

ـ احكين عنّى ...

ـ عنكِ ؟ ومن أنتِ ؟

أشارت السيدة إلى الطفلة على يمينها :

ـ أنا أمها ..

وإلى العروس على يسارها :

ـ وأمها ..

حكاية نادية

« قطرة فى الشتاء »

١١٣

حكاية ماهينار

« شعاع فى الصيف »

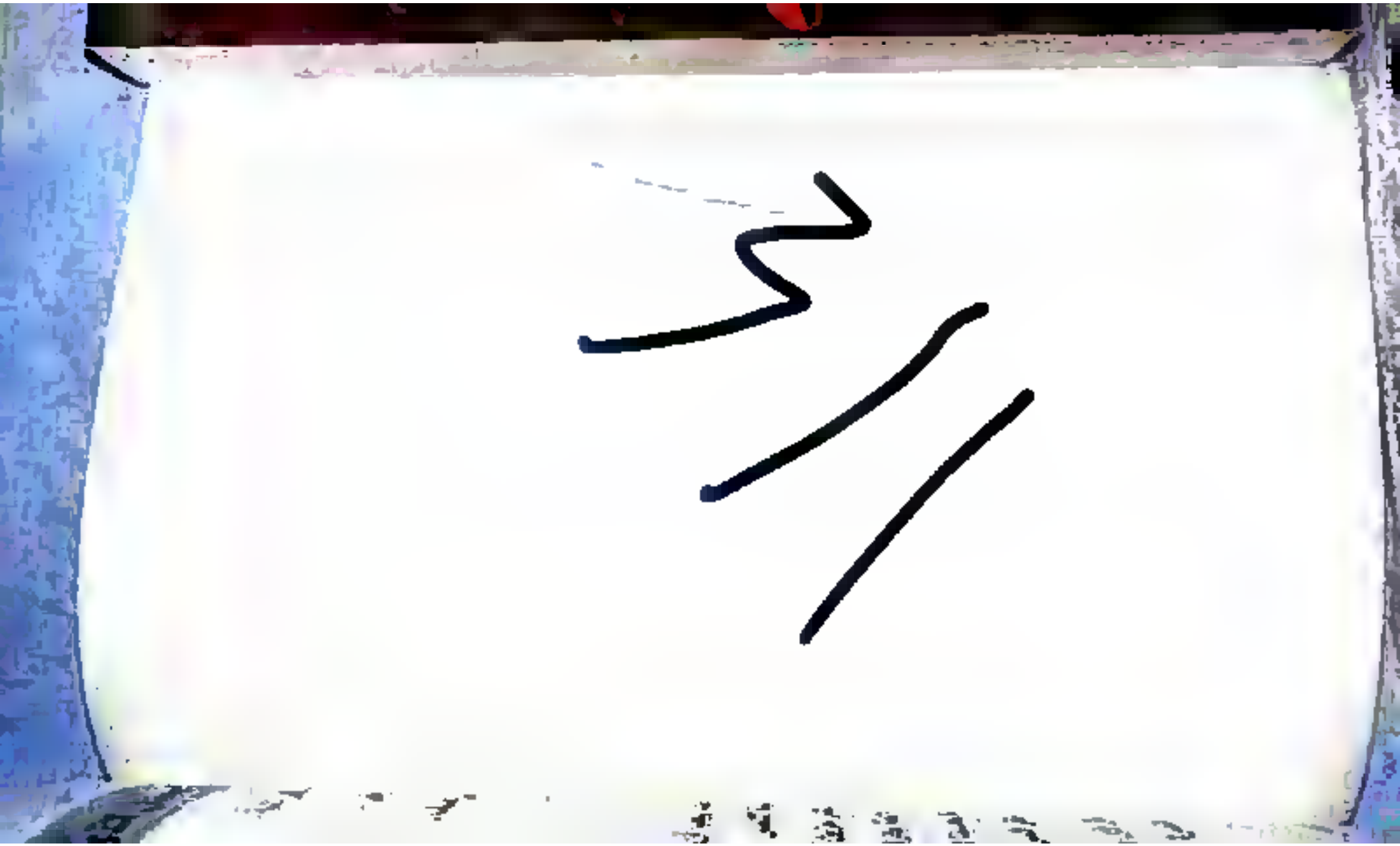

١١

عن العطش الذى ـ مثل الجوع ـ كافر

قلتِ إننا سنلتقى ثانيةً .

وصدقتِ يا ليلى ..

وقع ذلك فى الصيف ،

ذات صيف ..

أوف !

نهارات الصيف يجب أن تجمع وتلقى فى أقرب سلة قمامة . الحر ، اللزوجة . ضربة الشمس ، القميص المبلل من تحت الإبطين ، المكياج السائح مثل بلياتشو حزين . معاناتك فى المواصلات لتحصل على جرعة هواء بعيدًا عن رائحة جارك ، الصهد يلفح وجهك يذكرك بنار جهنم . لماذا ندخل جهنم ولما يحاسبنا الله بعد . ألا يمكن أن يرحمنا ، ألا يمكن أن يخفف قلوبكم جميعًا ويغفر العمر الرهيب ؟

تصبر ، وتقول الآن ينتهى اليوم العصيب ، الآن ينقضى النهار الوبيل ، لكن هيهات ويا خسارة ! إنها نهارات طويلة إلى ما لا نهاية ، وأنت عمرك قصير .

أنا أكره الصيف .

أكره أجواء المصايف وزحام المصايف وأحبّاء المصايف الذين تحبهم من كل قلبك وتكون لهم كقرطاس فريسكا على الشاطئ يكمّل جو الرحلة لا أكثر ، وحين يعودون لمنازلهم سيذكرون الرحلة ولن يذكروا شيئًا عن قرطاس فريسكا .

أكره إجازات الصيف وما يمكن أن نتورط به فيها ، وحتّى ارتكاب الجرائم ، ثم يأتى أحدهم لا يسوّى نكلة ولكنّه يهددنا : « أنا أعرف ما فعلتَ الصيف الماضى ! » .

أكره الذهب والفضة ، فأشعة الشمس الذهبية تسلّط الأضواء تكشف العيوب تفضح الستر ، ولكنى فى ذاك الوقت كنتُ لازلتُ صغيرة وغبية ، وقررتُ أن أحصل على خصلات ذهبية .

* * *

أركض بين السيارات فى الشارع ، تلاحقنى صديقتى المقرّبة :

– على مهلك ، سوف تقتلينا هكذا !

– أنتِ لا تعرفين أكرم ، إنه لا يسمح لأحد بالدخول من بعده .

– أكرم هكذا بدون دكتور ؟ ثم منذ متى تهتمين بحضور المحاضرات !

ألتفتُ إليها وأمنحها نظرة حالمة :

– منذ بدأ يشرح فيها .

تتأبط ذراعى :

ـ حسنًا ، وما ذنبى أنا ؟

ـ أتظنين سيعجبه لون شعرى ؟

ـ ظلّى أنتِ هكذا ، كل يوم تعملين تقليعة وكأنما سينتبه إليكِ بعد أربع سنوات من التقليعات المبتكرة !

أنظر إليها لائمة ، أفلِت ذراعها وأسرع إلى المحاضرة . أطرق الباب وأدلف ، يتوقف عن الشرح ويرقبنى إذ أقول بينما أتلمس خصلات شعرى الذهبية على استحياء :

ـ ممكن أدخل ؟

لم يمنحنى تعبيرًا للحظة ، قبل أن يتمثل الذعر ويصيح :

ـ اطلبوا المطافئ بسرعة ! انظروا من اشتعل رأسه قبل أن يأتى .. ماهي-نار ! حريقة ! حريقة !

علت ضحكات الطلّاب ، وشاركهم وصلة الضحك ، ثم أشار إلىّ أن أدخل :

ـ تفضلى .

بالتأكيد استحققتُ الدخول بعدما دفعتُ ثمنه من كرامتى ، لكنى أتنازل عنه بإرادتى ، استدرتُ مغادرة ، فى العادة أتعامل مع هذه المواقف بلا

مبالاة ، فى العادة لا أهتم ، كما بإمكانى أن أرد ، ولكنى لم أرغب فى اى شىء ، غير قهوة سادة فى كافيتريا بعيدة ، لا يشاركنى عزاءها أحد .

ـ علمتُ أنكِ هنا !

ألجمتنى المفاجأة ، لكنه اتخذ مقعدًا إلى جوارى وكأنما هو شىء يحدث كل يوم ، ورفع فنجان قهوتى إلى فمه ، ثم أنزلها ممتعضًا :

ـ مُرّة هذه !

سألته بجفاء اصطناعى :

ـ أى خدمة ؟

ـ فقط بعض القهوة .

ـ كيف عرفت أننى هنا ؟

أجابنى :

ـ البعض يبعد أكثر ، كلما اشتاق أكثر .

ـ يخاف من الجرح ، ربما .

ـ لا تقولى : « جرح » ، بل قولى : « مشاكسة » ، فنحن نشاكس الأعزاء علينا فقط .

أرفع إليه عينى على اتساعها ، يستدرك :

ـ هل تظنيننى فى العادة أهتم للون شعر هذه أو تلك ؟

ـ وما أدرانى أنا ؟

ينظر إلىَّ مشككًا :

ـ لاحظى أنى قطعتُ المحاضرة حتى ألحق بكِ .

ـ ومن أجل أى شىء هذا ؟

ـ قولى أنتِ .

يمنحنى نظرة متحدية ، لن أصمد أكثر من ثانية ، تتكسر عينى ضاحكة ، ينخلع قلبى إذ ينهض :

ـ لدىَّ محاضرة ثانية ..

يسير خطوات ثم يلتفت يعلى من صوته بسؤال بدا غريبًا :

ـ هل جرّبتِ الأحمر ؟

ـ ماذا ؟

ـ الأحمر القانى ..

أبتسم وقد التقطتُ تلميحه ، فيغمز بعينه ويتابع المسير ، وأنا أبعثر خصلاتى الذهبية فى رضا : حريق ، أو لا حريق ، الشرارة قد انطلقت ، وقُضِى الأمر !

* * *

فى طريق العودة ، أعرج على مصفّفى المفضّل ، يتتعر وجهه كأنما قد قتلت له قتيلاً :

ـ للتوّ صبغته ذهبيًا ، أنتِ هكذا تفسدين شعرك !

ـ أنت لا تفهم شيئًا ، إنه يريد أن يرانى بشعر أحمر ، وهذا أول طلب يطلبه منى .

ـ لكن الصبغة فوق الصبغة ستدمّر شعرك ، كما أن اللون لن يثبت .

ـ إذًا لتُزِل الصبغة الأولى .

يبرطم مبتعدًا :

ـ أنتِ وشأنك !

يطبّق مستحضرات إزالة الصبغة ، لا تأتى بنتيجة تُذكَر ، يعلن استسلامه ونصره فى ذات اللحظة :

ـ أرأيتِ ؟ يجب أن تنتظرى حتى تزول الصبغة تلقائيًا .

أنظر إليه شذرًا على سبيل تحية الوداع .

* * *

فى المنزل ، أجرّب وصفة خبيرة تجميل : زيت جوز هند ساخن وفيتامين سى مطحون ، لا نتيجة . إذًا وصفة صديقتى : خل وليمون وصودا خبز ،

لا فائدة . إذًا وصفة خالتى : مسحوق غسيل بدون مبيّض وسائل تنظيف صحون مع شامبو مضاد للقشرة ، لا أمل ، لا شىء ، لا شىء !

أقرض أظافرى بشدة ، مازال اللون ناريًا وكأنه احترق فعليًا ! أدبدب بقدمى بعنف ، ماذا أفعل الآن ، لا يمكننى أن أبقى هادئة ، ألتقط حقيبتى وأنطلق مغادرة .

أتوقف لدى أول كوافير يقابلنى ، تطالعنى عاملة تبدو قليلة الخبرة ، أبادرها :

ـ أريد أن أزيل الصبغة .

تمضغ علكة ودون أن تدير نظرها عنى تطلق النداء :

ـ ماما وفاء !

هى أكثر من عاملة إذًا ، ربما هى ابنة صاحبة الكوافير ، تخرج السيدة وفاء من غرفة داخلية ، تبدو رشيقة ومنمّقة وتعتنى بنفسها رغم تقدم عمرها ، هذا طراز النساء الذى أحب أن أكونه حين أكون فى مثل عمرها ، هذا طراز النساء الذى يقدّر رغبة الواحدة منّا فى إسعاد حبيبها ، هذا طراز النساء الذى يملك الرغبة جنبًا إلى جنب مع الخبرة لمساعدتى ، هتفتُ :

ـ هذه الصبغة اللعينة ، لا تريد أن تفارقنى !

ـ سوف أزيلها فى ثانية ، لا تحملين همًا .

بش وجهى :

ـ حقًا ؟ لم أخبركِ أننى جرّبتُ كل الوصفات والمستحضرات الطبية وغير الطبية من دون فائدة .

ـ ولماذا تتلهفين على إزالتها هكذا ؟

ابتسمتْ خجلًا :

ـ الحقيقة يا مدام وفاء ...

لوت رأسها امتعاضًا :

ـ وما « مدام » هذه ؟ إذا كنتِ مصممة قولى لى « ماما » ، كل البنات هنا تنادينى « ماما فيفى » ..

أجل ، هذا طراز النساء الذى أحب أن أصادقه لأدلى باعترافاتى الغرامية ويسدى لى المشورة ، استدركت :

ـ الحقيقة أنها رغبة شخص عزيز علىَّ أن يرانى بشعر أحمر .

أضاءت قنديلاً فوق رأسى تسرى إضاءته باللون الأحمر ، قرّبته من شعرى وراحت تتفحصه بينما تسأل :

ـ أحمر أرجوانى ؟

ـ بل أحمر قانٍ .

التمعت عينها باللذة :

ـ إذًا أحمر قانٍ كدم الغزال .

ابتعلتُ ريقى شاردةً ، ثم نفضتُ الفكرة من رأسى :

ـ المهم الآن أن نزيل الصبغة .

ـ هذه أمرها هيّن ، لا تقلقى أبدًا ، هل تعرفى أننى أراه الآن على ضوء هذا القنديل باللون الأحمر ؟

ابتسمتُ مرتبكة ، لم يشعرنى الضوء براحة ، بالأحرى أشعرنى بعدم راحة ، الضوء الأحمر ليس لطيفًا ، الضوء الأحمر يصلح لإنذار الغافلين ، يصلح لإزاغة العينين ، يصلح لتعذيب المجرمين ، ليس هذا ما أشعر به وحدى ، لا بد أن هذا ما شعرت به أحلام حين حاصرتها بضوء الليزر فى طريقها بعد اليوم الدراسى ..

* * *

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

* * *

كان أول نذير عمّا سيحل بها ، كان نذير شؤم ، وكان يكفى أن تراه كى تعلم أى مكيدة ندبّر لها وأى شرّ سينالها ، يكفى أن تلمحه حتى تختبر كل مخاوفها تعيشها وتقتلها ، ارتباط شرطى ، كلب بافلوف ، كلنا نعرف ، لكن

لا أحد يعرف الكلمة التى نطقَتْ بها إلى حين صوّبتُ الضوء لعينيها ، حينها نظرَتْ بعينى مليًا ثم قالت : « عيون الشياطين حمراء فى النار ، وأنا أهابها يا ماهينار » . سرحتُ فى الفكرة ، هرشتُ شعرى الأزرق وقضمتُ أظفارى، ولكنّى لم أتوقف ؛ فإن شهوة الإيذاء أقوى من سطوة الشياطين ، أمّا الآن فى أحلامى فأسمع العبارة بتصرّف : « عيون الشياطين حمراء فى النار ، وأنا أعدك بها يا ماهينار » .

أحلام .. اسمها وحده كابوسى المرعب ، نفضتُ الذكرى ، وطلبتُ أدبًا :

ـ هلا أبعدتِه ، من فضلك ؟

قرّبت القنديل أكثر ، وصوّبت الإضاءة نحو عينى مباشرةً ، أبعدتُ رأسى وحجبتُ عينى بكفّى وأنا أردد :

ـ المهم يا مدام وفاء : الصبغة .

أزحتُ كفّى فإذا بها أمام عينى تتضخم وتتغوّل أكثر ، تشع عيونها بضوء أحمر ، وتقول بصوت لا يمت لما سمعت قبلًا :

ـ قلتُ إنى ماما فيفى ..

* * *

« فى فاى فو فام ! » .

* * *

تقفز عينى إلى الخارج ، يتبعها قلبى ، تنسل ضفيرة طويلة من أعلى شعرها ثم تتفكك وتتناثر خصلاتها حولى ترهبنى ، ترجفنى ، تسرى القشعريرة فى جسدى ، تنتصب خصلات شعرى فوق رأسى أسمع لها طقطقة وأشم الشياط ، ثم تنزل على كتفى شيباء بلا لون ، استعادت هيئتها الأولى وقالت فى بساطة :

ـ وقلتُ لكِ أيضًا : الصبغة أمرها هيّن .

بأكف مرتعشة أرفع خصلات شعرى أمام وجهى ، كان ذهبًا أصبح فضّة ، وأنا أكره الذهب والفضّة ، لا أجد دموعًا أرثيه ، بدا عليها التذكر فعادت تسأل :

ـ لم تخبرينى عن الشخص الذى يعزُّ عليكِ ، هل هو حبيبك ؟

لا أجد لسانًا لأنطق ، أومئ برأسى رويدًا ، يثور شعرها أكثر ، تقول بنبرة أعلى :

ـ لا أسمع .

أهتف بأعلى صوت فيخرج كالهمس :

ـ نعم ، نعم ، حبيبى .

ترفع إصبعها وتشير إلىّ مرددةً :

ـ شعركِ مثل شعاع فى الصيف ، ولكِ بعدد شعر رأسك لعنات ! شعر رأسك أشعة ، بعدد

نزلتُ عن الكرسى كبوًا ، لم أجد لى ساقين ، رحتُ أحبو فى بطء نحو الباب ودون أن أنظر للوراء ، لكنها استوقفتنى بنبرة رقيقة :

ـ يا ابنتى ..

توقفتُ فى مكانى ، بينما أكملَتْ حديثها :

ـ ألا تدفعين ثمن الخدمة ؟ سيكلفكِ ألف جنيه .

يندفع الأدرينالين فى دمى ، وأنطلق عدوًا إلى الخارج ، تطالنى عبارتها من خلف ظهرى :

ـ اركضى أو لا تركضين ، سنلتقى بعد حين .

* * *

لا أدرى إن كنتُ وصلتُ البيت حبوًا أم محمولة على الأعناق ، فقط أذكر أمى تشيح بوجهها وتستنكر : «أبيض ؟! اللون السابق كان أفضل !» قبل أن تستوعب الموقف . يومان فى البيت لم أرَ الشمس ، يومان أرى مع كل إغماضة جفن العفريتة التى طلعَتْ لى ، هل هى أمنا الغولة أم جنيّة أم شيطانة ، أنا أقول بأنها شيطانة لأننى فى الكابوس الأخير رأيتُ أحلام تقول لى : « عيون الشياطين حمراء فى النار ، وأنا وعدتك بها يا ماهينار » .

وفَيتِ يا أحلام ، وحتى الآثمون أمثالى لا ينكرون نبل الوفاء .

ولكن ، العطش !

أقامنى العطش من الفراش ، تفاديتُ الهرّة النائمة وعبرتُ الطرقة إلى المطبخ ، فتحتُ باب الثلاجة وقبل أن أمدّ يدى ، انسلّ شعرى يطال زجاجة الماء فيدير سدادتها بين الخصلات ويندس بها يجرع فى جشع ، من خلف ظهرى سمعتُ شهقة أمى ، ارتبك شعرى واستكان ، سألتها :

ـ هل رأيتِ شيئًا ؟

ـ لا أدرى كيف رأيتِ أنتِ فى الظلام ؟

لم أنتبه ، ثم أضاءت النور ، تلوّت خصلات شعرى وسمعتُ لها زومًا ، زدتُ بذراعاى عن شعرى وأنا أهتف :

ـ اطفئى النور ! اطفئى النور !

ثم تركتُها وعبرتُ ركضًا إلى غرفتى تتبعنى القطة محاولةً الدخول ، غير أنى دفعتها بقدمى وأغلقتُ الباب ، فاختلط مواؤها بنحيب أمى التى تولول :

ـ ما بكِ يا ابنتى ، ما الذى حلّ بكِ ، بدّل أحوالك وأشاب شعرك ؟

اندسستُ فى الفراش مستسلمةً لإغواء النوم . لكن الفكرة المزعجة عمّا حل بشعرى تمنعنى النوم ، يجب أن أصبغ هذا الشعر فى الصباح إذا أردتُ الذهاب للجامعة أو رؤية أكرم . جفناى ثقيلان يعداننى بنوم فورى قبل أن أدرك أننى استغرقتُ بالنوم . لكن ولولة أمى تخترق أذنى تفتت أعصابى وتحرمنى النوم . أحلام راضية عنى وقد وفّت بوعدها وأرضت غرورها وحقّت لى ليلة هانئة من دون كوابيس ، ولكن العطش ، ذلك العطش أشعر

به فى حلقى شعرى روحى قلبى مخّى عظمى لحمى عصبى كل شىء ، لا أحد ينام وهو جائع ، ولا أحد عطشان يمكنه النوم ! لكنى سأنام مع كل هذا الفتور وتخدير الأطراف وهدّة ما مررتُ به أمس ، مواء القطة ، خربشاتها ، خمش أظافرها على باب الغرفة تقشعرنى تطير النوم ! وأنا أرغب فى النوم ! أرغب فى النوم !

أفتح الباب ، تدخل القطّة ، تهدأ القطّة ، وأغرق بالنوم .

* * *

فى الصباح ، وعلى ضوء الشبّاك الخافت أجلس أمام التسريحة أطالع نفسى فى المرآة .. هل كنتُ أحلم ؟ لا يوجد أثر لشعر أشيب ، شعرى أحمر قانٍ يتطاير مع النسمات وينسدل على الكتفين . إننى بخير ! إننى بخير !

رغم أنى أعرف أننى لم أكن أحلم ، وأننى أتذكر جيدًا كل ما ذكرتُ قبلًا ، ولكنى لن أكذّب عينى وأقول إن شعرى لم يصطبغ بالأحمر مثلما أردتُ منذ البداية بلا أية شعرة بيضاء خائنة . مهلًا ، من أجل الأمانة ، هناك شعرة بيضاء لمحتها ، شعرة بيضاء واحدة ، أتناول المِلقَط وأجذبها من الجذور فأستشعر ألمها العذب إذ تفارقنى ، ولا مَنْ رأى ، ولا مَنْ درى ، والسر فى بئر .

دعك أنى أشعر أنه ثمة فاصلًا ما بين «تدخل القطّة» ، و«تهدأ القطّة» ، وكأنما تمت إزالته فى المونتاج ، ولكنى لن أبحث فى مقالب الذكريات عن فواصل عطنة تم التكتيم عليها بعدما فاحت الرائحة ، المهم : أننى بخير .

أقف عن مقعد التسريحة ، تصطدم قدمى بعائق ذى فراء ، عائق بلا دماء ، كما لم يعد يموء .

لو أنها فزورة كنتُ لأقول « القطّة » . لكنها أوضح من ذلك ، ليس من فوازير هنالك . الجثة بلا دماء ، والشعر أحمر دموى ، وأنا أشعر بالارتواء .

حمدًا لله أننا توقفنا عن إطلاق الفوازير ، حينها كنتُ لأقول :

« مصاص الدماء » .

* * *

يكلمنى أكرم على الهاتف يدعونى للغداء ، أقول باقتضاب :

– اجعلها : عشاء .

ثم أغلق الخط .

ما إن يرانى حتّى يتجمّد ، ويقبّل أناملى :

– كم يناسبكِ الشعر الأحمر !

أبتسم ربع ابتسامة ، ليس وقت المجاملات ، أبحث بعينى عن مكان يصلح ، لكنّه يتخير لنا موضعًا آخر للجلوس ، أقوده فى غير لياقة إلى المكان الأخفت إضاءة . يسحب لى الكرسى ويجلسنى مثل أميرة ، لم يسمح لى جو الجامعة أن أتعرف إلى الجانب الراقى من شخصيته فى تعامله مع

النساء ، لكنى عرفت أنه حنون ورومانسى ، كنتُ أراهن على هذا بعمرى ، بأربع سنوات كاملة للدقة .

لا أحب أن أفكر فى فظائع الأمور ، ومع شخص كهذا ، يمكننى أن أعيش عمرى كله فى الظل ، سوف يعمل فى النهار ، وسوف أنتظره فى البيت أغسل ملابسه وأحضّر طعامه وأربّى أبناءه . وإذا خرجنا إلى الشارع ، سوف يكون هو ظلّى ، ولن أحتاج منه لأكثر من الظل ، وماذا تريد كل النساء بالكون من الرجل أكثر من الظل ؟

يُنزِل النادل إلى مائدتنا أكواب الماء والعصير . يدير بعض الأغانى الكلاسيكية ، وقبل أن أعترض ، يُعلى الإضاءة .

يتصلّب شعرى فجأة ، يدعونى أكرم إلى احتساء العصير ، فينغرس شعرى مثل الشفّاطة فى الكوب ، ويرشف العصير حتّى آخر قطرة ، أمام أعين أكرم المتسعة . يرتبك تتخبط أنامله يسكب كوب الماء على المائدة ، يبحث فى جيوبه بعصبية ، يخرج منديلًا بعد حين ، لكن من دون داعٍ ، فشعرى قد تكفل بتجفيف المائدة ، ينظر إلى ذاهلًا ، أبتسم وأرفع كتفى فى بساطة :

ـ يصيبه الجفاف فى الصيف !

أنظر إليه بترقب انطلاء حيلتى ، ينظر إلى بشكٍّ للحظة ، يقطعها النادل إذ يُنزِل صحون الطعام ، أرفع رأسى إليه وأقول من بين أسنانى :

ـ أقبّل يديك خفّض الإضاءة !

وهى النبرة التى لم يفهمها أحدهما ، ولكنّه استجاب للأمر ، فعدتُ إلى دلالى وغنجى ، وأصبح بإمكانى أن أشوّش على الأمر .

ـ ماذا طلبتَ لى ؟

ـ هذا الطبق على ذوقى ، وهو طبقى المفضّل هنا ، أرجو أن يعجبكِ .

ابتسمتُ برقّة ، وتناولتُ شوكة ، لكن الشوكة الأولى كانت كفيلة بأن أفرِغ معدتى ، جحظت عينى وسال أنفى ونافس وجهى لون شعرى ، قلتُ بصوتٍ يحمل كل آثام العالم :

ـ هل هذا ثوم ؟

علا الارتباك وجهه :

ـ عذرًا لم أعرف أن ... ، هل لديكِ حساسية من الثوم ؟

حسنًا ، لنقل ، عندى حساسية من الثوم . بدأ يهدّئنى ، ويسقنى الماء ، هذا اليوم الطويل لا يريد أن يمر ، لماذا لا تضعنى فى سيارة وترسلنى للبيت؟ لكنه ضم أصابعه ثم بسطها وقال :

ـ مهلًا ، انتظرى ، أفضل جزء من اليوم لم يأتِ بعد .

حقًا ، هذا العرض لم ينتهِ بعد ؟ جراب الحاوى لم يفرغ بعد ؟ فماذا أيضًا ؟ أخرج من جيبه علبة زرقاء :

ـ أعرف أنها هدية رمزية ، عدّيها فقط تعبيرًا عمّا أريد أن أقول ..

فتح العلبة بين يديه ، ثم بسطها أمام وجهى وقال :

ـ أتتزوجيننى ؟

هكذا يمكن أن يصبح اليوم أجمل ، هكذا يمكن أن يصبح العمر أجمل ، لماذا لم تقل منذ البداية أيها السخيف ، لماذا لم تقل منذ بدء الكون ؟ يتناول أناملى بين أنامله ، ويصوّب الخاتم نحو إصبعى ، وما إن يمس إصبعى حتى أهتف :

ـ مهلاً ، انتظر ، هل هذا ... فضّة !!

لكنه لا يريد أن يُفلِت إصبعى ، لا يفهم لأى سبب لا يدخل الخاتم فى الإصبع :

ـ انتظرى ، تمهلى ... سأعالجه حالاً ، إن المقاس مناسب ... أنا لا أفهم ... فقط انتظرى ، تمهلى ...

ـ بل تمهّل أنت ، انتظر ، انتظر ، انتظـــــــر !!!

أيها الغبى ، ألا تفهم ؟!! قلتُ أنى لا أحب الذهب والفضّة ، فالذهب لون الأشعة السافرة ، والفضّة تقتل أمثالى . تضرب خصلات شعرى أنامله تطيح بالخاتم فورًا ، ثم تُسقطه أرضًا ، تنغرز خصلتان مسنونتان فى جانب عنقه ، ينسحب الدماء من وجهه رويدًا ، يرتفع فى شعرى رويدًا ، يطقطق شعره ويشيب على الفور ، أعرف كيف يحس ، فقد مررتُ بهذا الإحساس قبلاً ، لا أعرف كيف يفكر ، لكن لا أعتقد أنه لا يزال يظن أننى يناسبنى الشعر

الأحمر، فالرجل الذى تتسببين له بالشيب المبكر لن يحب أن يرى شعركِ بالأحمر ، أو غير الأحمر ، وإن نفذ بعنقه من بين خصلاتكِ مرّة ، فلا يمكن أن يُسلّمكِ عنقه من جديد .

♪

«ليش ... ؟!!

صيف السنة انتهى بسرعة ، واحمرت أحراش الغار

والمرا اللى شعرها أحمر ، مثلهن شعلانة بالنار

لا بداية ولا نهاية ، والوقت مارق غريب

مثل مرورى بأفكارك ، لحظة بتلمع وبتغيب

يا عصافير السهل الجاية ، تبشر بشتى تشرين

وجوه وأسامى ببالى ، حدا يذكّرنى : لمين ؟! »(*)

♪

(*) أغنية لا بداية ولا نهاية ، هبة الطوخى .

١٢

عن الإنسية التى شطحت بأحلامها

زفرت ماهى ، وأردفت بسخرية :

ـ لستِ وحدكِ التى تبحثين عنا ، سيدة فيفى ، أنا أيضًا بحثت عنه طويلًا من دون جدوى ، ولو سألتنى الآن سأقول لكِ بأن المَا ليس بالمبلغ الكثير لإزالة صبغة ، أنا مستعدة لدفع ألفين ، عشرة ، فقط لو تقبلين بالميزا .

تنظر لها أم الشعور بثبات ودون أن تجيب ، تحنى ماهينار رأسها وتقول فى يأس :

ـ لن تقبلى ، هاه ! أعرف أنكِ لا ترغبين بالنقود ، وماذا تفيدين منها فى مقامك أسفل الماء ، سوف تبتل على أية حال ، أما الظفر بنا فهو أمتع وأشهى ، الغريب أننى حين توصلتُ إلى حيلة استخدام واقى الشمس ظننتُ بأننى تغلبتُ عليكِ ، حين تخليتُ عن الصحبة والأهل والأحباب ظننتُ بأننى الممثل الصواب ، حين عزفتُ عن ضوء النهار ورضيتُ بالظلام وحياة الخفافيش وبتُّ أشاهد الصيحات الجديدة من أفلام مصاصى الدماء النباتيين الذين يحجمون عن شرب دماء البشر وأمصمص شفاهى ، ظننتُ بأننى سننتُ ديونى واستحللتُ حياتى ، لكنّ ظهوركِ أفسد كل شىء ! فلماذا ظهرتِ ؟

أمالت أم الشعور رأسها :

ـ بطلاء شعركِ بالواقى ، ومشاهدة أفلام مصاصى الدماء ، ظننتِ بأنكِ تغلّبتِ على ؟ ظننتِ أنكِ حصلتِ على حكاية تحكينها لأولادكِ وأحفادكِ عن كيف تغلّبت الإنسية ذات الشعر الأحمر على الجنيّة أم الشعور الطويلة ؟ أليست خطة طموحة ؟

ـ كان كل شىء هادئ حتّى حضرنا إلى هذا الفرح الشؤم ! ليتنا لم نأتِ !

تدخلت ريفال وقد أثارتها الكلمة :

ـ ولماذا حضرتن يا بوم الخراب ! أنا الفرحى الشؤم أم أنتن اللائى تحقدن علىَّ منذ الطفولة ، تستكثرن على جمالى ولا تتركننى فى حالى !

وبالتأكيد لم تكن آسيا لتصمت عن هذا :

ـ فعلًا المشكلة بنا نحن ! فعلًا لو لم نحضر لكنتِ أسعد زوجة بالعالم ، هل جُننتِ أم أعمت الغلالة عيونك ؟ إن ما وقع بعرسك سيُذكر من ضمن أسوأ عشرة كوارث حلّت بالأرض ! وعلى أى حال ، أنا لم أكن لأحضر لولا هاتفتنى ليلى ودعتنى نيابةً عنكِ !

ـ وأنا كذلك ..

ـ وأنا كذلك ..

واستنكرت ريفال :

ـ أنا لم أفعل هذا ..

توجّهت كل الأنظار نحوى ، ينتظرن تفسيرًا ، سيكون عسيرًا ، ولكنّها الحقيقة :

ـ اختلط على الأمر ، رأيتها فى الحلم ، وكنتُ فى فترة يختلط على الحلم بالوهم !

لا ينطق أحد ، أستدرك :

ـ أقصد بالحقيقة !

ـ لا أفهم !

ـ ما معنى هذا ؟

وضربت أم الشعور بقبضتها المائدة :

ـ هل سنقضى الليل كله فى هذا ؟

ثم التفتَتْ إلى آسيا :

ـ إن الوقت يمر ، ولا زال هناك الكثير لنسمعه ، أليس كذلك يا آسيا ؟

تجيبها بنظرة لا مبالية :

ـ ثم ماذا ؟

ـ هل أنتِ خائفة ؟

تحدجها بنظرة متحدّية :

ـ ومِمَ أخاف ، ليس لدىّ ما أخفيه ، وكلنا فى الهوا سواء ، أى كلنا فى مركب واحد ، أليس كذلك يا فيفى ؟

* * *

١٣٦

حكاية آسيا

« ورقة فى الخريف »

١٢

عن البكرة التى ستكبر

لست أنتِ التى تخيفنى ،

ولستُ أنا التى تخاف ، يا ماما .

وقع ذلك فى الخريف .

ذات خريف ..

وأنا أكره السقوط ..

ليس من ذنبٍ ألعن من السقوط ...

المرأة الخاطئة ساقطة ، الطالب الراسب ساقط ، وآدم حين عصى سقط ، والذين يخونونك يسقطون من عينك ، من ذاكرتك ، من حساباتك ، والأرض وحش جائع يجذبهم لأسفل ، ولو الجنة بالسماء فإن الجحيم بأسفل ، « الدنيا » ذاتها من الدنو لأسفل . ثم هل تعرف مم تُشتق « السفالة » ، « الدناءة » ، « الوضاعة » ، « الانحطاط » . كلها إشارات إلى الأسفل .

وأنا قد لا ألتفتُ لطفل باكٍ أو رجل يأكل من القمامة ، لكن مشهد سقوط أوراق الخريف بأسفل الشجرة يستأهل التوقف .

بالأعلى ، أنت ملك زمانك وهذا الكون يعمل من أجلك والكل عند أقدامك ..

بالأسفل ، أوه ، عفوًا .. هذا الكون أسقطك سهوًا ، وأنت ، من أنت ؟ كل الناس أقدام ، وأنت ملقى على الأرض .

وحيد ، منفى ، منبوذ ، تجف منك روح الحياة ، لا تصمد أمام نسمة هواء ترفعك أو تخفضك ، تسليك وتمرجحك ، تدغدغك وتراقصك ، لحظة من الدلع الأخير ، لحظة من الحب اللعين ، أو قل : القتل الرحيم ، ثم تعرف اللحظة الأقسى أين : حين تسمع الخروشة .

لا تحظى حتى بدفنة لائقة ..

بعد أن كنتَ فوق .

وإذا طاحت البقرة كثرت سكاكينها؛ لا أحد يرحم عزيز قومٍ ذل . هذا هو الخريف ، هذا هو الكون . هذا هو القانون ، هذا هو العدل .

قد تعرفون عنى القسوة ، اللامبالاة ، جمود القلب ، ولكنى لستُ كذلك، كل ما بالأمر أننى اخترتُ أن أكون بالأعلى ، لن أهوى بالأسفل بإرادتى أبدًا ، كما تفعل الكثير من الفتيات اللاتى تظل تتنازل وتبذل وتهوى من أجل حبيبها الذى يدوسها بالنهاية .

، أنا قررتُ أن أبقى بالأعلى مادمتُ أملك روحى وعصبى الذى يحرّك لحمى ، وإذا رأيتمونى بالأسفل فاعلموا أنى مِتّ .

* * *

أقود منذ الصباح على طريق الإسكندرية ، وتحدّثنى أمى عبر الهاتف ، لا أدرى ما الذى يقلقها حين لا تجدنى صباحًا ، إن لم أكن بالبيت فقد خرجت ، ما الصعوبة فى فهم ذلك ؟ لكن صوت صفّارات سيارة شرطة تشوّش على كلامى ، ثم تَلُوح السيارة فأضطر إلى الارتكان إلى جانب :

ـ انتظرى يا أمى لنرى ما هنالك ، فقد استيقظتُ باكرًا خصيصًا كى لا أرى وجوهٍ كهذه !

قلتُها وأنا أرمق ضابط الشرطة الذى وقف يتأملنى من شبّاك السيارة ، ثم أغلقت الهاتف . رمقنى بنظرة ثابتة وقال :

ـ الرخصة ، من فضلك .

منحته الرخصة فى بَلادة ، فتأملنى أكثر ما تأملها ولمّا يرفع عينه بعد ، لن يجد غلطة ، أنا أعرف هذا :

ملامحى مضبوطة بالورقة والقلم ، عيون مؤطرة بالكحل مسحوبة إلى الخارج ، رموش مثنية لأعلى مُكثّفة بالماسكرا ، حواجب مرسومة بالتاتو على شكل ثمانية ، حتى الشفاه لا أكتفى بالحمرة ، لابد من تأطيرها بقلم تحديد بارز يلفُ استدارتها وامتلاءها . أما شعرى فهو خارج الحسابات ، هذا لا يجب أن يُشذَّب أو يُقيَد ، هذا يجب أن يبقى حرًا كما هو ، يبقى برّيًا وعنيدًا ، مائجًا وكثيفًا ، ثائرًا ومثيرًا كما هو ، وليعجب من يعجبه ولا يعجب من لا يعجبه ... هذه أنا !

أشعلتُ سيجارة فى ملل .. وبعد كل هذا كان لم يتجاوز بعد تلك النقطة :

ـ الرخصة ، من فضلك .

ـ إنها معك .

ـ فما رقم الوالد ؟

ـ ماذا ؟!

امتزجت الابتسامة بصوته إذ يقول :

ـ أمزح ، هل تعرفين كم كانت سرعتك ؟

ـ أظن : ١٤٠ .

ـ ألا تعرفين أنكِ بهذا تقعين فى مُخالفة تجاوز السرعة ؟

ـ أية سرعة ؟

ـ السرعة القصوى المسموحة للطرق السريعة ؟

ضاق صدرى :

ـ وكيف لى أن أعرف السرعة القصوى المسموحة للطرق السريعة ! إنها سريعة وكفى !

اتسعَتْ ابتسامته :

ـ هل تقصدين أن أسامحكِ بشكل ودّى هذه المرّة لأنكِ لا تعرفين ؟

استفزتنى العبارة ، مددتُ يدى فى حقيبتى وأخرجتُ ورقتيْن بالقيمة المطلوبة :

ـ بل سأدفع الغرامة .

سقطَتْ ابتسامته ، لم يمد يده يلتقط الورقتيْن واكتفى بأن أشار إليهما بعينيه متسائلًا :

ـ لا تعرفين المُخالَفة ، وتعرفين قيمة الغرامة ؟!

ـ حسنًا ، أعرفها لأننى وقعت بها سابقًا ، فهل هناك مشكلة ؟

يزفر ويزم شفتيه متريثًا للحظة ، ثم يحنى رأسه بقدر يسير لينظر إلى مقعدى داخل السيارة :

ـ ألاحظ أنكِ لا ترتدين حزام الأمان .

يمتقع وجهى إذ أنظر له ، فيضيق عينيه ويضيف بتحد :

ـ كما .. أظن أنكِ كنتِ تتحدثين بالهاتف أثناء القيادة ؟

أكتم غيظى بداخل فمى ، ثم أقول بعد لحظة :

ـ حسنًا ، أنت تكسب ، فما الذى تريده بالضبط ؟

قال دون تفكير :

ـ رقم والدك ..

ـ ماذا ؟!

عاجلنى :

ـ قلتُ لكِ إنى أمزح ... فهل أنتِ ذاهبة إلى الإسكندرية ؟

أدير السؤال بسؤال :

ـ وهل عرفتَ هذا وحدكَ ؟

ـ وهل أنتِ ذاهبة وحدكِ ؟

أتلفتُ خلفى بالسيارة :

ـ كان هناك أشخاص معى ، لا أدرى أين سقطوا منى !!

يكتم ضحكة :

ـ لكن أليس الجو الآن باردًا بالإسكندرية ؟

أبتسم بسماجة :

ـ ليس الجو وحده البارد !!

يبتسم بدماثة :

ـ خفّضى السرعة ، ولتصحبكِ السلامة .

ثم فعل آخر شىء بالمطلق توقعتُ أن يفعله ،

أول شىء بحياتى يثير مشاعرى ولا يجعلنى أجلس على بعضى ،

وأبسط شىء بالعالم يمكن أن يُطلِق كل هذه الفوضى فى روحى فجأة ...

لثم الرخصة ، قبل أن يعيدها لى .

* * *

كل خطوة يخطوها مبتعدًا أريد معها أن أهتف :

« بِس ... يا ... . أيها الضابط ... .. ألم تطلب رقم والدى ... . هاك رقم والدى » .

لم أرَ ضابطًا أروق حالًا ، لم أرَ ضابطًا أطول بالًا ، لماذا كنتُ سخيفة إلى هذا الحد ، لماذا كنتُ بغيضة ، لماذا كنتُ غبيّة .. لماذا لم أمنحه رقم والدى ؟

هذا سؤال بسيط جدًا : لماذا لم أمنحه رقم والدى ؟!!

ماذا أفعل بنفسى الآن ... هل أخبط رأسى بالتابلوه ، أم أدخل فى شجرة أم ماذا بالضبط ؟!

إمّا أن أموت الآن ، أو أعيش بحسرتى :

ألا لعن الله النَزَق ،

ألا لعن الله الخَطَل ،

ألا لعن الله الحماقة !

لن أسامح نفسى أبدًا ، سينتهى بى الحال فى مصحة أمراض نفسية أردد : « أنا عندى شعرة ، ساعة تروح ، وساعة تيجى » .

هاه .. مهلًا ، أصوات الصفّارات لا زلتُ أسمعها ، كما المحه فى المرآة من خلفى ، لماذا يطاردنى ؟ لماذا يتبعنى ؟ يجب أن ألقنه درسًا عن احترام

خصوصيات الآخرين ، من يظن نفسه هذا القمر ؟ ألا يوجد ضبّاط وقباطنة وطيّارين أكثر جاذبية فى البذلة الرسمية منه ؟ ألا يوجد رجال أكثر بهاء ووسامة وحلاوة وقسامة عنه ؟ أمّا عجيبة !

أركن إلى جانب ، فيركن خلفى ، أترجل وأتقدّم منه ، هذه المرة أصير أنا الواقفة وهو الجالس ، ينظر إلىَّ من نافذة سيارته مبتسمًا كعادته ، لا أبادله الابتسامة كعادتى ؛ فإن الروح تخرج قبل الطبع أحيانًا ، أسأله :

ـ هل أنا مُراقَبة أم ما الأمر ؟

ـ لا ، على العكس ، أنتِ مواطنة حرّة ، وأنا مواطن حرّ ، فلماذا تستوقفيننى ، هل أخطأتُ فى شىء ؟

أعجبنى تبادل الأدوار ، أشعرنى بالسيطرة ربما ، لو أستوقفه لقلتُ إنه تجاوز الحد الأقصى للجاذبية المسموح بها على الطرق السريعة ، لكنى قلت :

ـ إذًا ، هل تتوقف عن متابعتى ؟

هزّ رأسه نفيًا :

ـ ما دمتِ تسيرين بالسرعة المسموح بها فسأتمكن من ملاحقتك ، أمّا لو خالفتِ القانون وأعليتِ السرعة فـ ...

أقاطعه :

ـ فهل تقبض علىّ ؟

ـ بل ستضطريننى لمخالفة القانون كذلك .

هكذا إذًا .. فلتسمع هذه :

ـ اسمع ، لا تظن أن النجوم على كتفيك ستخيفنى ...

رفع كتفيه :

ـ وأنا أيضًا لا أخاف النجوم فى عينيكِ .

كان هذا أقوى من قدراتى الدفاعية ، كما أن النجوم التى سأسهر بعدَها فى حبه أكثر من قدراتى الحسابية ، وصدّق أو لا تصدّق : ابتسمت .. لا بد أن الابتسامة مهّدت طريقه ، وأنا أؤمن أن أى شخص عيونه خضراء يجب أن يكون طريقه أخضر كذلك ، كانت الفرصة سانحة له ، وكشخص طبيعى ليس معقّدًا مثلى اقتنصها :

ـ اسمعى ، لماذا لا توصدى سيارتكِ وتأتى تركبى جوارى ؟

لا يلقَ أى تعبير ، فيكمل :

ـ لقد أثرتِ حنينى إلى الـ ... نوّات فى إسكندرية فى هذا الوقت ، ثم أوصلكِ ثانيةً للسيارة ، ماذا تقولين ؟

لا زال لا يحصل على أى تعبير ، تدور عينه يمنة ويسرة ثم يستدرك :

ـ سأغلق صفّارات الإنذار لو تفكرين بهذا !

من قال إنى أريدك أن تغلقها ، من قال إنى لا أحب أن أجلس فى السيارة « الميرى » ، إلى جانب الزوج ـ أو بس ـ العريس ـ أعنى ـ الضابط « الميرى » .

« زوجة رجل مهم »(*) .. فيلم يقول الكثير ، ثم تقابل بعضًا منهم فى الحياة فتدرك أن السينما لم تظلمهم وإنما دللتهم كثيرًا . كلهم أوغاد ، أعرف هذا ، لكنهم أوغاد جذّابون جدًا . لنواجه الأمر ، ستنصحكِ جارتكِ ألا تتزوجى ضابط شرطة؛ إنه جاف ، فظ ، سيئ الخلق ، سيعاملكِ كما يعامل مجرم عنده ، ولكن حين يتقدم لابنتها ستطلق زغرودة وتخمّس فى وجهكِ .

ولكنى أنا التى سأكيدك أيتها الجارة اللئيمة ، وأجلس إلى جواره فى الكوشة ، إحم ، السيارة .

* * *

فى نهاية اليوم أعادنى معتز إلى السيارة ، توقّعتُ أن اسمه مهندًا أو مهابًا ، ولكن لم نبتعد كثيرًا؛ لا بد أن مثله حظى بأم رائعة تختر له اسمًا ذا رنين وجلالة . جلستُ خلف المقود ، ووقف عند نافذتى ، بالضبط كما التقينا أول مرة ، ينظر إلىَّ عبر النافذة ويقول :

ـ الكاب ، من فضلك ..

أتذكر أنى أرتدى الكاب الخاص به ، يعزّ على أن أتخلّى عنه ولكن :

(*) فيلم لأحمد زكى وميرفت أمين ، من إخراج : محمد خان .

ـ تفضّل ، هل تريد شيئًا آخر ؟

ـ رقم والدك .

ـ ثانيـــة ؟!

أتساءل مبتسمةً ، لكنه لا يبتسم :

ـ أتحدّث جدًّا ، أريد رقم والدك .

ـ أتمزح ؟

ـ أمرك غريب ! ماذا أفعل لأثبت لكِ أنى جاد ؟ أريد أن أزوركم أنا ووالدتى ، هل يناسبكم الجمعة القادمة ؟

ـ سأفكّر ..

أردتُ أن أتعزز قليلًا ، لكنّه كان قد ملّ مَيْعى :

ـ اسمعى ، أنا صبرتُ عليكِ كثيرًا ، ولتعلمى أننى لو لم أستطع أن أملِى كلمتى عليكِ فإن رجلًا آخر لن يقدر ، وستبقين عانسًا طوال عمركِ ، فهل ستسعدين حينها ؟

بالضبط كما تمنيته : حار الدماء ، قوى الشكيمة ، عريض المنكبين وهذه الكلمات الكبيرة ، وهذه المرّة فوق عنقى أن أستغبى ، قلتُ بوداعة :

ـ وهل قلتُ شيئًا ؟

ـ إذًا الجمعة القادمة ، ولتعلمى أن والدتى شديدة بعض الشىء ، ولكن قلبها طيّب .

ثم ضرب على السيارة معلنًا انتهاء المحادثة :

ـ هيّا .

أشعلتْ سيجارة ونفثتْ دخانها بوجهه بينما أقول لنفسى : سأروّضها وأروّض ابنها معها ، فأنا خبيرة بترويض الوحوش ، ثم أدرتُ السيارة ، التقط السيجارة من يدى وارتشف منها مضيفًا :

ـ ولا داعى لأن تعلم بأنكِ تدخنين ، أمى متحفّظة بعض الشىء ، وأنا نفسى لا أستطيع أن أدخّن أمامها .

سواءً دخّنتْ أو لا دخّنت ، السيجارة قد اشتعلت ، والشرارة انطلقت ، وأنا وأنت ذقنا من ذات التبغ .

* * *

أعلمتُ أسرتى بشأن زيارة الجمعة ، وهى الزيارة التى تخرب بيت أبى نقدًا ، وتقصم ظهر أمى جهدًا ، ومع هذا تظل أحب زيارة إلى قلبيهما ، كنتُ أكمل الاستعدادات مع أمى حين جاءتنى مكالمة من والدة معتز ، تقول بأنها فى مطعم قريب وتريد أن تتناول الغداء معى على انفراد من أجل أمر مهم قبل زيارة الغد ، أثارت قلقى فعجلتُ إليها .

كما تصورتها : سيدة أرستقراطية من الطراز الذى يختر لابنه اسم مهند

أو مهاب ، ترتدى تاييورًا محتشمًا وطرحة مُقتضَبة ، كما عرفتُ من أين ورِث عينيه الملونتين ، ولاشك أن أولادى سيطلعون بالألوان أيضًا ، عرَفت بنفسها أنها وفاء المصرى ، ويبدو أننى أيضًا كنتُ عند توقعاتها إذ قالت فور رؤيتى :

ـ ما أحلاكِ ! جميلة جدًا .. كما وصفكِ معتز بالضبط ..

نظرتُ للأرض متمثلةً الخجل :

ـ شكرًا يا طانط ..

اكتسب صوتها استنكارًا لافتًا وهى تكرر خلفى :

ـ « طانط » ؟! ليست لطيفة .. قولى لى ماما .. ماما فيفى .

نسيتُ أمر الخجل وانطلق صوتى عاليًا كطبيعتى وقلت :

ـ معتز أخبرنى أنكِ شديدة بعض الشىء ، ولكن من الواضح أنكِ لطيفة جدًا يا ماما ..

ضحكت ضحكة صفراء ألجمتنى ، أشفعَتْها بعبارة من وجه جامد :

ـ بل أنتِ اللطيفة .

إلى هنا كنتُ قد اتخذتُ قرارى : لا مزيد من التصرفات على طبيعتى حتى نهايةِ الجلسة ، كانت لها طريقة تُشعِرك بأنها تنظر إليك ولو لم تكن تنظر

إليك ، أتشاغل عنها ، أنظر إلى بعيد ، أشعر وقع النظرة الحارقة على عنقى أو جبينى ، ألتفت فجأة ، ثم هى دومًا ليست ناظرة !

ثم ، ومن دون تغطية ، تأملتنى من شعر رأسى حتّى أخمص قدمى مخترقةً ما حجبته الطاولة ، وقالت :

ـ إذًا ، أنتِ التى أعجبتِ معتز !

آه .. أعرف هذه النبرة ، أنتِ التى خطفتِ ديكنا وحيلتنا وعماد بيتنا .. كان يجب أن أصدّقه ، هو يعرفها خيرًا منى ، ولن يوجد أحد يقول على أمه شديدة ما لم تكن شنيعة ! أخرجَتْ من حقيبتها جريدة إنجليزية وقالت :

ـ تسألين طبعًا عن سبب طلبى رؤيتك ..

أومأتُ فى ابتسامة شاحبة ، ألقَتْ بالجريدة إلىَّ عبر الطاولة وأشارت إلى موضع وقالت :

ـ هل تقرأين هذا الخبر بصوتٍ عالٍ من فضلك ؟

كان خبرًا بالإنجليزية عن اقتصاد أمريكا ولا أفهم ما علاقته بى ، وبعد عدّة أسطر سحبت الجريدة من تحت يدى وقالت :

ـ جيّد ، يكفى .

ثم أشارت إلى شاشة تليفزيون تعمل من بعيد من دون صوتٍ ، وقالت :

ـ أى قناة هذه ؟

ضيّقتُ عينى ونظرتُ إلى شعار القناة وقلت :

ـ قناة نايل سينما .

أومأت برأسها قائلة :

ـ ٦ / ٦

رفعتُ إليها نظرة فزِعة ، نظرة صدمة ، الآن أدركتُ الأمر ، هذا كشف هيئة على طريقة مارى منيب مع لبنى عبد العزيز فى الفيلم(*) .. هذه ليست شديدة ، هذه مصيبة ! حمدًا لله أنها لم تطلب تكسير البندق ، أو تبدأ فى جذبى من أماكن حسّاسة . آه لو لم يكن ابنها شديد الجاذبية ! ابتسمتُ لها بعاطفية ..

ردّت بابتسامة مقتضبة ، ثم مدّت يدها إلى شعرى تجذبه بين أصابعها ، كنتُ تذكّرتُ مليون جنيه ، تألمتُ للجذبة ، ثم لاقتلاع الشعر من جذوره ، نظرَتْ إلى الخصلات السوداء التى خرجت بين أصابعها فى سلاسة ، وقالت مستنكرةً وكأنما قد تمت إهانتها شخصيًا :

ـ شعرك يسقط !!

فتحتُ فمى عازمةً على إهانتها فعليًا ، غير أنى تداركتُ الأمر وآثرتُ السلامة ، مددتُ يدى فى حقيبتى بحثًا عن سيجارة أكتم بها فمى ، ثم تذكرتُ أن هذه أيضًا ممنوعة . كنتُ فى قمّة غضبى ، فى قمّة فورتى ، والغريب أن ما ضايقنى لم يكن محض جذبها لشعرى ، ولكن خروجه بين يديها بسهولة ،

(*) فيلم هذا هو الحب ، إخراج : صلاح أبو سيف .

لم تبذل جهدًا لاقتلاعه ، انساب وكأنما لا ينتمى لرأسى ، لا يريدنى ، لستُ الأم التى يأمل بها .

ذكّرنى بطرحة أحلام التى انسابت عن رأسها بمجرد أن لمستُها ، لم أبذل جهدًا فى الجذب ، لم يكن من شعر يثبّتها إلى رأسها ، كنتُ أتوقع شدًا وجذبًا ، أخذًا ومنحًا ، كرًا وفرًا ، لكن متعتى فسدت ؛ فقط سقطَتْ .

* * *

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

* * *

لم يسطع الرأس الأملس حفظ طرحتها أو أنوثتها أو عزّة نفسها ، لم تستبقِ دموع أحلام ولا توسلاتها حجابها ، لم تستبقه صدق رغبتها به أو عمق مقتها لى ، لم نصادف عقبات ولا تدخلات خارج التوقعات ولا هبّ أحد لنجدتها ، كانت عملية سهلة ونجاحًا يسيرًا ندوّنه بمحاضر جلسات «العاوّ القادم» :

عملية : البنت الصلعاء .

المهمة : تمت بنجاح .

إمضاء : العاوّ القادم .

كوّرت حماتى الخصلات فى كرة سوداء مجعّدة وظلت تلفها بين أصابعها بينما تحدثنى :

ـ أخبرينى .. هل تعرّفتِ جيدًا إلى معتز ؟

تعلّق عينى بالكرة بين أصابعها لا أستطيع إبعادها عنها :

ـ أعتقد ذلك .

ـ هل عرفتما عن بعض ما يكفى لزيارة الأسرة فى هذه الفترة القصيرة ؟

ـ هو الذى أصرّ على تحديد الموعد ، ويمكنكِ أن تسأليه بهذا الشأن .

تُنقّل الكرة من يدٍ إلى يدٍ :

ـ نعم ، ولكن ... هل يعرف ماضيك ؟

وقع فى قلبى :

ـ عن أى شىء تتحدثين ، أنا لستُ سيئة السمعة ولا ...

تقاطعنى :

ـ ألا تعرفين حقًا عمّ أتحدّث ؟

ثم تقذف بالكرة إلى أعلى ، تسقط فوق طاولة مجاورة ، يتذمر أصحاب الطاولة ، أهبّ لالتقاطها ، يقذفونها إلى طاولة مجاورة ، تسقط فى الحساء فوق العالدة ، الخدمة هنا ليست خمس نجوم ، أندفع إليها ، لكن الشعر

فى الحساء يصير أثقل ، يذهب أبعد ، أجرى أسرع ، تقع فى أيدى النادلة ، أركض إلى النادلة ، إلى الطاولة ، إلى الركن ، إلى النادلة ...

الكلب الحيران !

أدرك فى ذعر ماذا أنا . أتهاوى فوق مقعدى . لم أعرف أن الأمر مرهق إلى هذا الحد ، لم أعرف أنه مؤلم إلى هذا الحد ، ظننته مسليًا ، ألم نضحك حينها ؟

هاهاها ... هاهاها ... تتنقل أحلام بيننا ، تلهث خلف كرة النسيج التى كوّرناها من حجابها ، لكن الكرة قد اكتسبت ثقلًا من المطر وأصبح بإمكاننا أن نرسلها أبعد ، أصبح بإمكاننا أن ندوّخها أكثر ، إننا نمرح ، فلماذا تزعل ؟

يئست أحلام من الكرة ، تعلقت بمكوّرة الكرة ، جلست عند قدمى تتشبث بذيل التنّورة :

ـ أرجوكِ يا آسيا ، أرجوكِ ، أعيديها ، لا يمكن أن أبقَ دونها ...

ـ ابتعدى ! ستُسقِطين التنّورة !

لكزتُها فسقطَتْ ، ولكن التنورة أيضًا كانت قد ابتلّت وكان من الممكن أن تسقط ، وماذا كنتُ أفعل حينها !

أنزلَتْ النادلة طبقًا من اللازانيا أمام وفاء ، وطبقًا من المعكرونة أمامى ، نظرَتْ وفاء بجشع إلى الطعام والتمعت عينها بوهج غريب إذ تقول :

ـ أنا جائعة !

دسّت الشوكة فى طبقها وقالت :

ـ لقد اخترتُ لكِ بنفسى ، فتذوقى وأخبرينى عن رأيك فى ذوق فيفى ..

* * *

« فى فاى فو فام .. » .

* * *

غرستُ الشوكة بأعواد المعكرونة ألفلف فيها شاردةً .. تتوقف الحماة عن الأكل وتترك الشوكة والسكّين جانبًا ، ثم تمد إصبعيها تجذب شعرة من طبق اللازانيا تستخرجها بسلاسةٍ مثل الشعر من العجين ! ثم ترفعها أمام وجهى وتقول :

ـ أليست من شعركِ هذه ؟

ـ مستحيل !

أهز رأسى نفيًا ، تسقط عينى على طبق المعكرونة ، أرفع شوكة الشعر أمام وجهى وأصرخ :

ـ مستحيل ! مستحيل !

تقول دون أن ترفع عينها :

ـ هل تعرفين ما هو المستحيل ؟ زواجكِ منه .

ـ ولماذا لا ؟

تمد ذراعيها تهزّنى عبر المائدة وتسأل :

ـ هل تحبّينه ؟

ـ ولماذا أرغب بالزواج منه ؟

تهزّنى بقوة أشد ، تكرر بنبرة أعلى :

ـ أسألك : أتحبّينه ؟

ـ نعم ، أحبّه ، بالتأكيد ، أحبّه .

تترجرج عينيها يمنة ويسرة وتهتف :

ـ شعرك مثل ورقة فى الخريف ، ولكِ بعدد شعر رأسك ورقات ، لكِ بعدد شعر رأسك لعنات !

تسقط ضفيرة شقراء طويلة من شعرها ، تترجرج مثل عينها ، أعجب كيف أخفتها الطرحة الصغيرة ، تُحضِر النادلة فاتورة الحساب ، تهتز النادلة أمام عينى ، هذا أو العيب بعينى ! أجذب حقيبتى وأتمتم بكلمة وداع ، تمسك وفاء بمعصمى وتقول بأمومة زائدة :

ـ لم تأكلى يا ابنتى !

صدقًا قال معتز : هى شديدة بعض الشىء ، لكنَ قلبها طيَب . نفضتُ يدى بشدة وتمتمتُ بشىء عن الصداع ، فأحكمَتْ قبضتها وقالت :

ـ إذًا فمن يدفع الحساب ؟ عليكِ ألفًا من الجنيهات .

استخدمتُ يدى الأخرى لتحرير معصمى فيما أردد :

ـ لاحقًا ، سأرسل لكِ لاحقًا ..

وفى قفزتين كنتُ على الباب يتبعنى صوتها :

ـ كما تشائين ، فكل شىء بحساب .

* * *

بعد دقائق كنتُ أرفع الهاتف من الشارع :

ـ لم تخبرنى أن أمك محققة بوليس مثلك !

ـ ماذا تقصدين ؟ هل قابلتِها ؟

ـ كنتُ أتناول معها الغداء منذ خمس دقائق فقط .

ـ حقًا ؟ أمر غريب ، لأننى منذ ربع ساعة أطالبها بوضع الطعام وتدَعى بأنه لم ينضج بعد ، ما الذى تقولينه بالضبط ؟

يعاودنى الدوار :

ـ ما الذى تقوله أنت ؟ السيدة وفاء ، قابلتنى ، قالت إنها أمك ..

هل أنا التى تدور أم زوبعة الهواء تلك .. تتبعنى من خلف ظهرى ، تقدم عرضها أمامى ، رقصة تنورة من الغبار ، دوّامة من القمامة ، هل هذا ما يقصدونه بإعادة التدوير ؟ لكن القمامة تحمل لى هدية ، تخفى فيما بينها ، إنها كرة من الشعر . يقول معتز :

ـ أمى ليس اسمها وفاء ، ولا تعرف رقمك ، من الواضح أن أحدهم يداعبك مداعبة ثقيلة بعض الشىء ، أجلى الكلام فى الموضوع حتى موعد الزيارة .

أمدّ يدى ألتقطها ، أخطئها ، أمدّ يدى أنتشلها ، أفشل فى كل مرة ، يتعجب المارّة ، تختبئ أسفل سيارة ، أستند لاهثةً إلى حافة السيارة :

ـ بل أجَل أنت الزيارة .

* * *

ما إن أدير المفتاح فى الباب ، حتى تدير أمى أسطوانتها المعهودة :

ـ أين كنتِ ، أين اختفيتِ ، ألم أخبرك ألف مرة أن تخبرينى لدى خروجك من المنزل ؟ ثم إنى كنتُ بحاجتك لمساعدتى فى التجهيز للغد .. هيّا تناولى غداءك ، وتعالى ساعدينى ..

ـ ماذا أعددتِ للغداء ؟

ـ معكرونة .

أتوجس منها :

ـ ولماذا معكرونة بالذات ؟

ـ شىء سريع ، تعرفين أننى مشغولة بالتنظيف ، ثم أنتِ تحبّينها .

أهتف بها :

ـ أنا لن آكل معكرونة ، لن آكل معكرونة !

وأدخل إلى غرفتى موصدةَ الباب ، فلا يحجب عنى صياحها :

ـ أمرك عجيب ، وما لها المعكرونة ، وهل كنتُ مشغولة بالتنظيف من أجلك أم من أجل أحد آخر ؟ هكذا أنا دائمًا لا أعجب أى أحد بهذا البيت !

أبدّل ملابسى ، أقلب الشنطة : الهاتف ، النقود ، الفضّة ، كتلة شعر ! ظننتُ أنها فارقتنى ، ظننتُ أننى أضعتها بأسفل السيارة ، لكن يبدو أن الهواء دفعها داخل الحقيبة ، لا أدرى لماذا حاولتُ التقاطها فى الشارع ، لا أدرى لماذا اندفعتُ خلفها بين الموائد ، هى بلا قيمة ، لكنها تنتمى إلىَّ ، إنها منّى ، لكنّها ليست منّى أكثر من هذا ، هى من فضلاتى بالضبط ، لا أنا أريدها ، ولا أريد لأحد غيرى أن يجدها .

ألقى بها فى القمامة ، وأذهب لعمل كوب من النسكافيه عوضًا عن الغداء ، المطبخ مقلوب ولا أكواب نظيفة ، ألتقط سلك المواعين أغسل كوبًا ، لكنه لا ينظّف أبدًا ، أدعكه جيدًا من الداخل والخارج ، يظل قذرًا ، أبسط يدى المطوية على سلك المواعين : إنها كتلة الشعر ، ألقى بها على الفور !

الصنبور مفتوح أغرق المطبخ وأفاض على الأرض ، الحوض منسد ، ومن أجل أن أسلّكه خرجت يدى بكتلة من الشعر ، ذات الشعر .

أركض إلى الغرفة أبعثر القمامة ، لا يوجد شىء قذفته بيدى لم يقذفه غيرى . أعود إلى المطبخ ـ المقلوب سلفًا ـ أقلبه رأسًا عقبًا حتى يعتدل ، وأيضًا لا شىء .

ما أمر هذه الكتلة ؟ تلوح لى ، أفتّش عنها ، تطاردنى ، أتتبعها ، تنوى لى الشر ، أم إنى أعمل عقلى بعقل كتلة شعر ؟

أستلقى على الفراش وأحاول أن أهدّئ أعصابى ، يجب أن أفكّر بشىء من المنطق ، يقرصنى الجوع ولكنى لن آكل أبدًا ، يكفينى إعتلاك قطعة من اللُبان .

إع !! لكن اللبانة بها شىء يعوق المضغ ، يعلق بالضرس ، يعلك بالصدغ ، أقذف بها على الفور لكنها لا تسقط عن فمى ، عالقة به وكأنما محيكة بخيط أو ... بشعر ، أجذبها برفق فتجذب معها شعرة من الحلق ، يصيبنى الذعر ، أجذبها بشدة ، تستطيل الشعرة والبكرة تكر ، أجذبها بعنف ، بكلتا يدى ، بعزم طاقتى ، ولا تنتهى ، لا أستطيع التنفس ، أحشرج ، أغرغر ، والهواء ينفذ ، كما لا أحب طعم الشعر .

تخرج مع البصقة ، أتحسس حنجرتى وأعبّ الهواء ، ثم أكوّرها بغلّ ، أريقها فى المرحاض ، وأشد السيفون من غير وداع .

تنادينى أمى :

ـ تعالى للغداء ..

أرتمى بحضنها وأبكى مثل الأطفال ، لا تفهم شيئًا لكنها هنا ، وهذا هو كل ما أريده الآن ، تظن أننى محسودة بسبب زيارة الغد ، لا تدرى بعد أنه لا توجد زيارة فى الغد . تربّت على كتفى وتقول :

ـ أنتِ متعبة من قلة الأكل ، فور أن تأكلين ستصبحين بخير ، هيَا ..

ثم تشير إلى طبق المعكرونة وتؤكد :

ـ أنا حضَرته لكِ بنفسى ، كما تحبينه بالضبط ، فلا تكسفينى ..

ـ ثانيةً يا ماما ؟!

ـ فقط تذوقيها ، ستعجبكِ جدًا ..

فعلًا ، معكرونة طيبة وشهية وتنطق لتقول أوكلينى ، وأمى الوحيدة التى تعرف كيف تضبطها كما أحبها بالضبط ، حتّى أنا لا أعرف . ولكن : لا ، يعنى : لا .

أخلد إلى النوم ، تزورنى الملائكة فى الحلم : «غضبتِ على المعكرونة إذًا ، فماذا عن هذا ؟» تطعمنى أرزًا بالملعقة ، ما أجمله ، هل هو بالزبد أم السمن ؟ يطعموننى ملعقة بعد ملعقة من الـ ... شعر !

أهب جالسةً ، أبصق ما بجوفى على الوسادة ، تسقط حبيبات بيضاء مثلثة ، وتعلق بالحلق كتلة من الشعر .

إمّا أن أبصق روحى الآن أو أبصق هذا الشعر .

سأبصق هذا الشعر .

على الجَلَبَة تحضر أمى ، لم تشهد لكن سمعت منى :

ـ إنه يريد قتلى ، يريد قتلى ، لا أستطيع الفكاك منه .

لا تصدّق حرفًا واحدًا ، لكنها تعرف شيئًا واحدًا :

ـ لو أردتِ الخلاص من الشعر ، فلن يكون إلّا بالدفن .

* * *

تتبعتُ خيطًا بعد خيط حتّى دلّنى أولاد الحلال / الحرام .. أيًّا يكن ! دلّونى على السيدة بتعة ، زوجة الحانوتى ، هذه سيدة تستطيع أن تصل للمقابر بشكل آمن وتدفن لى الشعر مقابل قدرٍ من المال ، لكنّها غير مريحة؛ تسألنى أسئلة عجيبة ، وتقولها بأريحية شديدة وكأنها تسأل عن الطقس :

ـ أحضرتِ الأثر ؟

ـ أى أثر ؟

ـ هل جئتِ خالية ؟

أتناول كيسًا أسود من حقيبتى ، وأمدّه إليها ، تستخرج كومة الشعر من الكيس ، وتدسّ يديها تبحث عن مزيد :

ـ هل هذا فقط ؟

ـ أجل .

ـ أين الطلاسم ، الإبر ، الأحجبة ، دم الحيض ؟

يهالنى الأمر :

ـ ما الذى تقولين ؟

ـ لا تكونى تظنين أننى أقوم بالعمل بنفسى ، أنا أدفنه فقط .

ـ لا ، لا ، أنتِ تفهمين خطأ ، هذا شعرى أنا ...

تمدُ يدها تتلمس خصلات شعرى ، تشرد معه فى أنوثة مفقودة ، ثم تبتسم من دون أسنان :

ـ شعركِ أنتِ ؟ يا محلاه !!

تسترد يدها وقد علقت بها خصلة من شعرى ، تنظر إلى كفّها بانزعاج وتقول :

ـ انتبهى ، أنتِ تتركين أثركِ فى كل مكان !

تعلق عينى بها بذعر ، تفيق نفسها قائلةً :

ـ المهم ! هل تريدين الدفن مخيطًا بالكفن أم فى فم ميّت ؟

صهِ ! اخرسى ! يكفى هذا ، أقفز فى ثانية ألتقط الكيس من يدها وأركض للباب وسط أعينها الذاهلة :

ـ ما لكِ يا أبلة ؟ هل أغضبتكِ فى شىء ؟

أتوقف عند الباب ، أستدير ، أرجع ، ألتقط خصلة شعرى العالقة بكفها ، وأسرِع بالجرى .

* * *

هناك أشياء يجب أن تعتمد فيها على نفسك ، «لن يدفن خصلاتك مثل كفّك» .. هذا مَثَل حقيقى ، هذا مَثَل مؤلم ، وقد اخترعته توًا .

سوف أدفنك بنفسى ، اطمئن ، سوف أغسّلك وأكفّنك وأرقِدك باتجاه القِبلة مثل أى جزء مبتور من الجسد . سوف أُكرِمك وأدسّك بالتراب وليس أسفل كومة قمامة ، سوف أحترمك من أجل أن تحترمنى ، فهل أنت راضٍ عنّى ؟

أعرج على البيت ، أتزود بكشّاف ومفتاح المقبرة ، يراودنى الخوف مما أنا مقبلة عليه ، هذا مكان غير آمن لرجل فى النهار فضلًا عن فتاة فى الليل ، ولكنّى لا أستطيع الانتظار للصباح ، لا أضمن ألّا يقتلنى فى الليل ، أرتدى ملابس ذكورية ، قد تساهم فى التمويه ، وأتلفح جيدًا بلثام ، أشعر بالتوق إلى معتز ، قد تبدو أنانية ولكن أرغب فى أن ألقى بهمومى عليه وأدير ظهرى ، أتمنى لو أستطيع أن أشركه بمشكلتى ثم تصبح مشكلتنا أو مشكلته وحده ، ولكنّ الحِمل ثقيل ، وعلاقتنا لا زالت هشّة ، أعرف أنها ليست من الحكمة ، ولكن : قررتُ أن أشاركه بسرّى وأطلب رفقته فى مشوارى . أدرت الاتصال ، فبادرنى :

ـ عذرًا ، آسيا ، جاءتنى إخبارية ، وأنا خارج فى مأمورية ، سأنهيها وأكلّمك .

ـ الآن ؟

ـ نعم ، هل هناك شىء ؟

أفكر لثانية :

ـ نعم ، هناك شىء ، أريدك أن تعلم أنى لا أمانع أن يطلع أولادى بالألوان مثلك ، أو بالأبيض والأسود مثلى أنا ، ولكن أهم شىء أن يأخذوا شعرك لا شعرى .

تمر لحظة صمت قبل أن يسأل :

ـ آسيا ، ما الأمر ؟

ابتسمتُ فى حزن :

ـ لا شىء ، فقط أردتُ سماع صوتك .

أغلق الخط ، لا أدرى إن كان قد ابتسم قبل أن يغلقه ، قلبى يقول إنه ابتسم . أريد أن أودّع أمى كذلك ، لكن لا أريدها أن تلحظ ذلك ، هذه حالة لم أمر بها سابقًا ، ما كل هذا الشجن ! أعلى من صوتى :

ـ ماما ، أنا خارجة !

ـ أخيرًا انتبهتِ أن تخبرينى بخروجك ، وإلى أين إن شاء الله ؟

لكنى أكون بالشارع ، أتوقف عند بوابة المقابر ، أرفع السحَاب للعنق وأشدّ اللثام ، وبرغم هذا يلفحنى الهواء البارد عند العنق ، ينقبض قلبى ، أحاول تذكر الطريق منذ آخر زيارة قبل أشهر ، أدوس أوراق الخريف إلى مقبرة العائلة ، أنظر إلى المقابر المرتصة على الجانبين والأوراق الصريعة على الأرض ، سؤال فلسفى : أنتم دفنتم كل هؤلاء ، أعجزتم أن تمنحوا بعض الأوراق الميّتة دفنة لائقة ؟

أحاول أن أبدو كمن لم يلحظ : قططًا سوداء فوق شواهد القبور ، سحابة قاتمة تكمم القمر ، دخَان حشيش من خلف الأضرحة ، هل هذا غراب أم حدَأة ، الرؤية ليست جيدة ، لكن البومة ترانى بشكل ممتاز ، وإذا انحنيتُ مع الطريق تحنى من أجلى عنقها .

« هذا الميّت لى » ، « بل هذا الميّت لى » ، نبَاشا القبور يتشاجرا ، لم يرهما أحد بينما يسرقا ، ولن يسمعهما أحد بينما يتقاسما ، فلا أنا أُحتسَب ولا الأموات ربّما ، « خذ أنت اللحم وأنا العظم » ، « وهل تظننى غبيًا ، لنقسمه بالطول قسمة الحق » .

ذاك كان مُسلّيًا ، ما تلا ذلك كان مُرعبًا ، إنه الشبح ! أستدير فجأة ، لا أرى أحدًا ، ولكنّ هذا كان مُتوقّعًا ؛ أوليس شبحًا ؟! لكنى أشعر به ، أشمّه ، أسمع خروشات الوريقات أسفل قدميه ، لو كان يملك قدمين ، لا أدرى ! لابد أن البومة تراه لكنّها لن تخبرنى ؛ إنها لا تستلطفنى .

ألمح مقبرتنا ، أثبّت الكشّاف وأُعمِل المفتاح ، تلك الخروشة ، تلك

الخروشة ، ألتفتُ بسرعة للخلف ، وأيضًا لا شىء ، لكنّه قفل عَصِىّ ، يعاندنى الصدأ وأنا لا أنوى أن أمرر الأمر بسهولة ، أنا قتيلته الليلة ، ذلك الشبح ، ذلك الشبح ، لا يريد أن يظهر ، ولا يجيد الاختباء ! ينفتح القفل ، ألج المقبرة ، وأتناول الرفش .

ـ قف مكانك ! ضبطتك يا نبّاش القبور .

أتصلب فى مكانى لا أقدر على الاستدارة ، هذا الصوت .. هذا الصوت !!

ـ دع الرفش عن يدك ، وارفع يديك عاليًا .

لا أتوه عن صوتك ، أنت هو الشبح إذًا ، وهل هذه مأموريتك ؟

ـ والآن ، استدر ببطء .

أنفذ التعليمات بدقة ، فقل لى ، هل ستجد نبّاشة مطيعة مثلى ، ألا تظن بأننى سأكون زوجة مثالية ؟ لا أدرى إن كنتُ أزيح اللثام أم أتركه ، إن كان هذا سيساعد أم سيزيد الأمر سوءًا ، والمشرحة لا ينقصها قتلى ! على أية حال ، يوفّر حيرتى ، ويُسقِط اللثام بيده الحرّة ، تسقط يده الأخرى بالمسدس :

ـ أنتِ ؟

ـ معتز ، دعنى أشرح لك .

ـ أنتِ ؟

أستخرج اللفافة :

ـ أنا جئتَ أدفن الشعر ! أنا كنتُ سأخبرك !

يعيد تصويب المسدّس صائحًا :

ـ أخرجى يدكِ من جيبكِ ، يداك لأعلى !

ـ أنت لا تفهمنى ، أعانى من لعنة برأسى ، جئتُ أدفن الشعر وأتخلص منها !

ـ تتبشين القبور ، وتدفنين الأعمال ، أنا قلتُ من البداية أنكِ مريبة ، قلتُ بلا قلب ، لكن ليس إلى هذا الحد ، ليس بهذا الشكل ، تسرقين الأموات ، وتؤذين الأحياء ..

أنفى طوال الوقت :

ـ لا ، لا ، لا ....

يتوقف لحظة ، يطيح باللثام ، يجذبنى من شعرى :

ـ وأنا ماذا فعلتِ لى ؟ سحر محبّة ، أم ربطتنى عن بقية النساء ؟

ـ صدّقنى ، لا ، هذا شعرى أنا ، أدفن شعرى أنا ، لأنه يطاردنى ، لأنه يريد قتلى ... أنا كنتُ سأخبرك ، كنتُ سأخبرك ..

يخرج شعرى فى يده ، خصلات طويلة من جذورها ، تتساقط إلى الأرض ، أتحسس فروة رأسى ، تحن الخصلات الباقية إلى زميلاتها ، أنحنى وراء الخصلات ، أنتحب فوق الرفات ، يميل على ذاهلًا ، يرتعش صوته نادمًا :

ـ أنا ... لم أقصد ... .

أعرف أعرف ، هذا ليس ذنبك ، قلتُ بأنها لعنة وحلّت برأسى ، وقلتُ بأنى كنتُ سأخبرك ، والله كنتُ سأخبرك . حمدًا لله أنك عرفت ، وحمدًا لله أنه سقط ، هذا حل جذرى ، ولكن يبدو أنه لا يحب الحلول الجذرية ، فمنذ شاهد انعكاس القمر على صلعتى بالمقابر ، لم أره ثانيةً .

♪

« والشعر الغجرى المجنون ،

يسافر فى كل الدنيا ،

قد تغدو امرأة يا ولدى ،

يهواها القلب ،

هى الدنيا »(*)

♫

(*) أغنية قارئة الفنجان ، عبد الحليم حافظ .

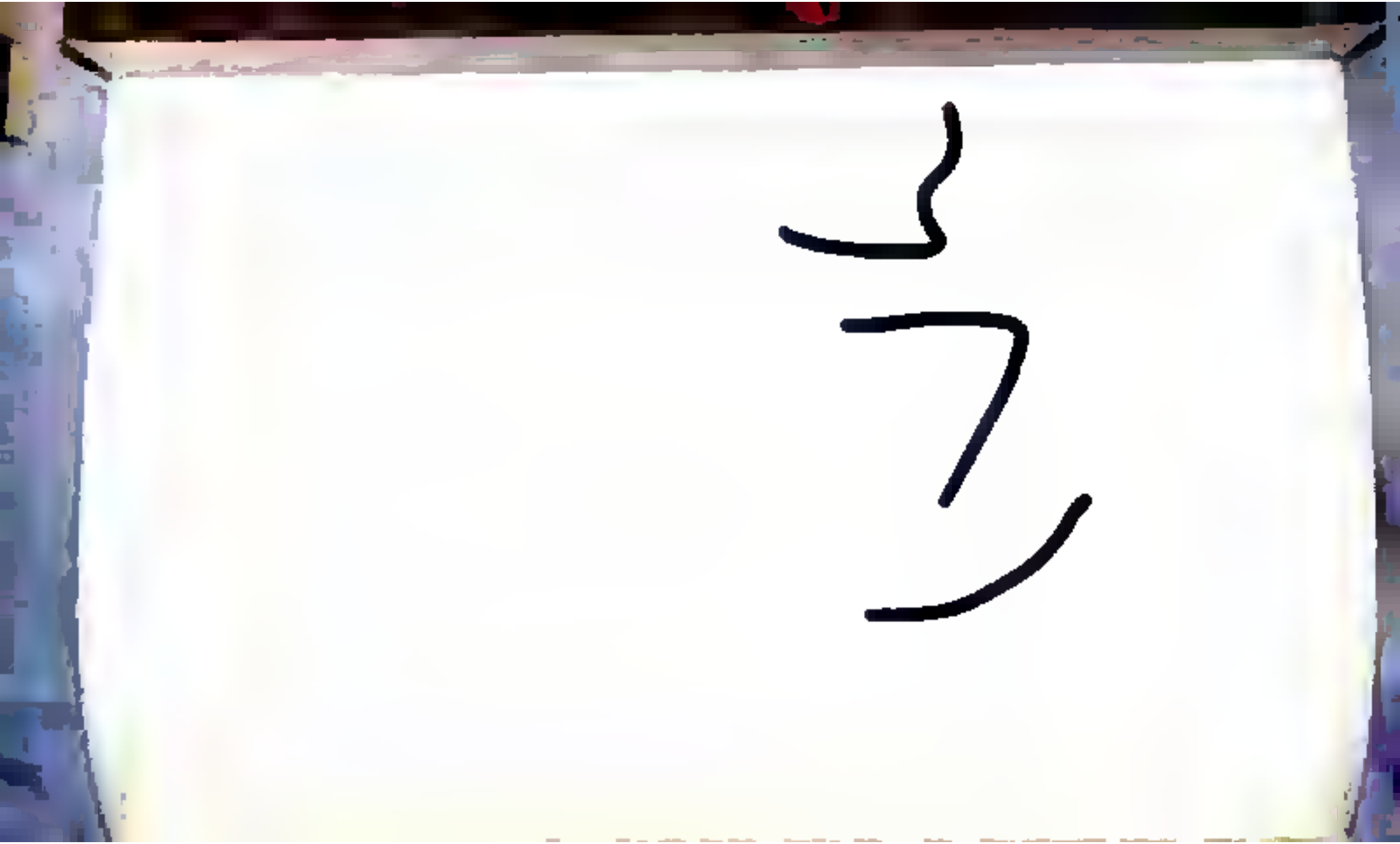

١٤

عن الشيطانة التى أعجبتنى

تحررت آسيا من حجابها قائلة :

ـ لستم غرباء ، والحر يقتلني .

ثم حدجتْ أم الشعور بنظرة ملآنة وقالت :

ـ هل أنت سعيدة الآن ، ماما فيفي ؟

لم ترُد أم الشعور كعادتها في التجاوز عن هفواتنا ، والحق يقال ، بدأت أستشعر نوعا من الإعجاب بها ، وجدتُ أني أقول :

ـ أنتِ فنانة في اختيار النهايات ، سيدة فيفي .

اتجهت كل الأنظار نحوي ، تحدجني بنظرات متربصة ، تلعثمتُ بينما أستدرك :

ـ آآآ .. شيطانة ، أنت شيطانة في اختيار النهايات المناسبة لنا ، تضعين يدكِ على نقطة ضعف كل منا ، ثم تنكزينها بنزّ صديدها مثل الجرح العفن ، ثم الطريقة .. دوما الطريقة مستلهمة من الشخصية ومستوحاة حتى من اسمها .. تجازين كلا بمثل جريرتها ، ثمة عدالة شعرية لا يمكن إغفالها ، عدالة تروق للفطرة السوية : كما تدين تُدان ، العين بالعين ، من قتل يُقتل ...

أتطلع حولي ، استحالت الأعين إلى فلاشات إنذار ، آآآأستدرك :

ـ ليس كل الفطرات بالتأكيد ، هناك فطرات ، وفِطرات ..

رمقتنى أم الشعور بنظرة إعجاب ، عادت ماهى من الحمّام ، تصحبها إحدى الحارسات ، فاتخذت مقعدها وقالت :

ـ هاه ! علامَ انتهت الحكاية ؟

نظرَتْ إليها آسيا شذرًا ، فالتفتَتْ إلينا وخفضت من صوتها :

ـ ماذا ؟ إنه نداء الطبيعة مع كل السوائل التى يشربها شعرى !

مالت إلى نادية وقالت :

ـ هل تتافقينها ؟

نظرتُ إليها عَجَبًا ، ثم قلت :

ـ نعم ، بالتأكيد .

ـ توقعتُ هذا ، كدتُ أشك بكِ .

أعلى الفتى الممسوس من صوته متحدثًا إلى أم الشعور :

ـ يا ... سيدة وفاء .. لو سمحتِ .. لقد بردتُ ، هذه الشعور التى تقيّدنى تقطر ماءً !

تدخل المأذون نيابةً عنها :

ـ ماذا ؟ التكييف عندكَ يقطر ماءً ؟ لا عليكَ ، تحمّله ، واحمد الله أنهم يأخذون الفتيات فقط !

أدارت أم الشعور رأسها ببطء ، ولأول مرّة تتحدث إليهما :

ـ لا تجعلانى ألتفت إليكما ...

عمّ الصمت القاعة إلاّ من دقّات الساعة ، نظرت أم الشعور إلى وردة ودون أن تسأل ، قالت تلك :

ـ سأحكى كل ما أعرفه ، لن أخفى أى شىء .

* * *

171

١٧٩

حكاية وردة

« زهرة فى الربيع »

(7.

١٥

عن السوس الذى ينخر براسى

أنا لا أحب المشاكل ،

ولا حتى المتع القصوى ،

يا نحلة لا تلسعيني ،

ولا أريد عسلاً منك .

حصل ذلك في الربيع ،

ذات ربيع ..

يطل الربيع حاملاً الدفء ، الضوء ، الفراش ، الأزهار ، الألوان ، الأغاني ، الرحلات ، الأعياد ، البهجة ، الخضرة ، وحتى رائحة التربة ..

يطل الربيع راسمًا البدايات الجديدة ، الآمال العريضة ، شباب العمر ، وحتى ثورات الشعوب ، يسمونها : « ربيعًا » ، فالربيع جيد السمعة ..

ولكن ليس بالنسبة لى ، لا تنطلى الخدعة .

لا تنطلى على علماء الجغرافيا الذين يرعبونك بمصطلحات يقتونها عادية لوصف الربيع : بدءًا من ، الزحف الربيعى / عواصف رعدية / أعاصير مدارية / أعاصير حلزونية / رياح موسمية / رياح الخماسين / رياح السموم » ، أو اختصارًا يقولون : « زقاق الأعاصير » . ثم يكتبون فى الكتب أن الربيع موسم المناخ المعتدل ، والجو بديع .

ليس على علماء الحيوان الذين يتحدثون عن عودة أسراب السنونو والنوارس والكروانات والبلابل ، ثم صحو الضفادع والضِّباب والسحالى والسلاحف ، ماذا عن نشاط البراغيث والبق والعناكب والخنافس ، لن أتحدث عن الكواسر والضوارى والأفاعى والعقارب ، حتى العنقاء والرخ ، لو وُجِدوا فى هذا الكون لرأيتهم فى فصل الربيع ، حيث الطقس دافئ والجو بديع ، وغذاءهم مُلقى على قارعة الطريق ، لماذا لا يأتون على الحى والميت ، والجماد والنبات ، والأخضر واليابس ؟

وعلى ذِكر النبات ، فإن علماء النبات يصفون تفتح النباتات ، ترحيبها بالحشرات ، نقلها لحبوب اللقاح ، تطايرها فى الجو ، اختلاطها بالتراب ، بالرمال ، بالغبار ، بالقش ، بالهواء ، دخولها عينك ، أذنك ، أنفك ، بلعومك ، رئتك ، ثم يحيلونك إلى فئة الأطباء .

أما فئة الأطباء فيشرحون لك الحساسية الموسمية ، تهيّج الأغشية ، حمّى القش ، الربو ، كما ينسبون الأمراض للربيع فيقولون : رمد ربيعى ، تعب ربيعى ، اكتئاب الربيع ، ولكن الدنيا ربيع ، والجو بديع .

هكذا ، أتصور فريد الأطرش يغنى : « آدى الربيع عاد من تانى » بينما يلطم بكفّيه خدّيه وتخبّط ركبتيه ببعضهما على طريقته فى غناء : « ياما جوّا الدولاب مظاليم » . وأرى سعاد حسنى تشدو : « الدنيا ربيع ، والجو فظيع ، وفى رواية : شنيع » ثم تفتح مطواة على حسين فهمى وتصرخ : « قفّلى على كل المواضيع » تلوّح بالمطواة يمنة ويسرة : « قفّل ، قفّل ، قفّل ، قفّل » .

أتحدّث جدًّا : ما يخيفنى مما سبق ليس الكثير ، فقط رياح السموم ، إنها الرياح التى أهلكت عادًا الجبّارين ، عادًا الذين لم يُخلَق مثلهم فى البلاد أهلكهم هبوب الهواء . ثم هناك الجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، لقد أهلكوا قوم فرعون ، فأى عذاب ادّخره الله لى قصاصًا للذنب ، وأى نهاية تلم بى ؟ فكلتا النهايتين تنتميان للربيع ، وأنا أشعر أنى أنتمى لكلتا النهايتيْن .

* * *

كانوا يعرفوننى فى التدريب ..

يعرفون أن وردة الوديعة كقطّة يمكنها أيضًا أن تخمش كقطّة إذا ما تجاوزْتَ معها بالكلام ، وهناك ثلاثة متدربين جدد يتم استثنائهم كل أسبوع لعدم اللياقة ، لذلك حين مسّ موسى كفى بالخطأ أثناء بحثه عن الملف ارتبك ، وضع يده على قلبه وسعل بصوت مبحوح .

وفى المرة التالية إذ كان يستخدم حاسبى لاستخراج البيانات نسى أننى أمسك بالماوس من قبله ، لم يستشعر حتى نعومة ودفء كفّى التى لا تمتّ للماوس ، لكنه انتبه حين سحبتُ يدى ومنحنى تمتمة اعتذار .

أمّا المرة الأخيرة التى انتهى فيها إلى اعتصار أناملى أثناء بحثه عن الدبّاسة ، فقد صعد الدم إلى رأسى وعزمتُ أن أفضح أمره ، فتحتُ فمى وقبل أن أنطق فقد نظر إلى فالتقت عينى بعينه ، هبط الدم الكان صاعدًا وقبع فى وجنتى فصرتُ اسمًا على مسمى .. وخرستْ .

دعانى إلى الغداء بعد العمل لكنى رفضت ، فدعانى إلى فنجان قهوة أثناء

الاستراحة لكنى اعتذرت ، فرجانى أن أساعده فى شراء بذلة يحضر بها عرس أخته نهاية الأسبوع ، لم أملك إلاّ أن قبلت .

فى الطريق إلى المتجر سعل قليلاً وقال :

ـ شكرًا لمساعدتى .. الحقيقة أنى لا أجيد الشراء ولا أفهم فى الموضة .

ـ لا عليك .

كنتُ أعرف هذا ، وربما هذا بالضبط ما أعجبنى به ، إنه ابن القرية الذى لم يتحول بعد إلى مسخ المدينة لا أتب فوق ظهره من حمل أوزار مع أوزاره ، لا ملابس متفتقة لا تسع تكبّره واغتراره ، لا نظرات خائنة دائخة من التلصص هنا وهنا ، لا أقدام مسلوخة مسحولة من الركض هنا وهنا ، لا أسنان مسنونة ، لا جروح ينز منها الصديد ، لا رائحة عفونة ، والقلب تقريبًا كالجديد ...

ـ لقد ذهبتِ إلى بعيد !

ـ ماذا !!

أنتبه فإذا بى قد سبقته بخطوات ، بينما توقف أمام نافذة عرض . أعود إليه فيشير إلى إحدى القطع :

ـ ما رأيكِ ؟

ـ موافقة .

ينظر لى بعجب :

ـ على أى شىء ؟

أنتبه إلى كلماتى : ما أمركِ ؟ ما بالكِ ؟ الرجل لم يقل شيئًا ، ولستِ التى تفتقر إلى الغَزَل أو كلمات الشوق ! ألوى رأسى وأحك مؤخرة عنقى :

ـ لا بأس بها ، لا بأس بها ...

ـ إذًا ، لنقيسها .

يدلف إلى غرفة القياس ، وأنظر إلى نفسى فى المرآة :

« مرآتى يا مرآتى ، من أجمل فتاة بالكون ؟ »

لا ، لا ، ليس هذا السؤال ، بل خبّرينى يا مرآتى : هل يحبّنى أم لا ؟

نظرة عينٍ ذات معنى / بل أنتِ الهبلاء .

لمسة يد بشكل سافر / قولى : بشكل عابر .

أراد الماوس ليس أكثر / إذًا والدبّاسة ، ما تفسيركِ للدبّاسة ؟!

لاح جوارى فى المرآة ، يغلق أزرار الجاكيت ويسأل :

ـ ما رأيكِ ؟

ـ لائقة عليك .

ـ أعجبتكِ البذلة ؟

كنتُ أتحدّث عن نفسى وليس البذلة ، ولكن على كلٍّ :

ـ نعم ، أجل .

أزاح بعض القشور المتساقطة عن كتفى ، ثم أمسك بذراعى يديرنى إليه بينما أنظر إلى يديهِ بلا إرادة أو طاقة للاعتراض ، قال :

ـ إذًا ، فهل تقبلين بأن تعلقى بذراعها وتنيرى قريتى بكفر الشيخ يوم الخميس القادم ؟

ـ وبأية صفة ؟

ـ بصفتك خطيبتى .

ألجمتنى المفاجأة ، ثم قلتُ دون أن أفِق بعد :

ـ أمى لن تقبل ، إنها تخاف على كثيرًا ، إنها ... ..

التقط كفّاى يداعبهما بين كفّيه ، كففتُ عن الكلام ، أريد أن أحظَ بانتباهى حين تتماس كفّانا وتحتكان برفق ، فقد علت حرارتى ، وأوشكت الشرارة أن تتقد ، أطرقتُ برأسى فى خجل . على كلٍّ : نعم ، أجل .

* * *

هذا هو ،

عرفته ،

هذا هو ... . الحب !

لكن ، هو لاحظ القشرة ، يجب أن أفعل شيئًا قبل الخميس .

فى عيادة الأمراض الجلدية شكوتُ للطبيبة حالتى :

ـ أعانى من القشرة بشعرى ..

ـ صفى أكثر ..

ـ هناك حكّة بفروة رأسى ، وقشرة على الكتفين .

ـ أسمعك ، أكملى .

ـ أنا أعنى بشعرى جيدًا ، ولا أعرف لماذا تظهر الـ .... .

تقاطعنى :

ـ الحكّة ، احكى لى عن الحكّة .. حتّى أستطيع أن أصف لكِ العلاج المضبوط .

ـ الحكّة ... إنها حكّة لعينة تجعلنى أريد أن أنشب أظفارى العشرة برأسى أفتتها هرشًا حتى تستكين ، حكّة دفينة أشعر بها داخل مخّى وليس فروة رأسى ومهما نهشتُها بأصابعى لن أطالها . حكّة مقيتة أطلقتُ أظفارى خصيصًا من أجلها وأدميتُ رأسى ، حكّة عنيدة لا تفارقنى أبدًا أتصورها أحيانًا جزءً من تكويننا كبشر وأتعجب كيف يحيا الآخرون من دون حكّة ، فهل تخلّصينى منها يا دكتورة رجاءً رجاءً ...

أمسح دمعةً أحرقت عينى ، فتصدر همهمةً وتقول :

ـ والقشرة ، ماذا عن القشرة ؟

ـ القشرة تسقط على وجهى ، رمشى ، كتفى ، أجدها على الملابس ، البساط ، المشط ..

تشير بيدها فى ملل ، تريدنى أن أسرّع الشريط نحو المقطع المثير :

ـ نعم ، نعم ، أكثر ، أكثر ..

تعزّ على نفسى ، لا أتمالك دموعى :

ـ لا أفهم لماذا تأتى هذه القشور ، أنا بشر يا دكتورة ، ولست سمكة أو سرطان بحر ..

ـ سمكة لا ، لكن هل فكرتِ بعروس البحر ؟

تتوقف دموعى :

ـ ماذا ؟

ـ لا عليكِ ، أكملى ، أكملى ...

ـ ربما لم أفكر بعروس البحر ، لكن فكّرت بأشياء أخرى ..

ـ مثل ماذا .. ؟

ـ مثل ثعبان أو حيّة ، أشعر وكأن فروة رأسى تتقشر تتشقق تسلخنى ، وكأن جلدى القديم لم يعد يسعنى ..

ـ لا تذهبى إلى بعيد ، الأمر ليس بهذا السوء ..

ـ فإلى أى حد إذًا ؟

ـ لستِ حيّة أو ما شابه ، أنتِ بخير .. كل ما فى الأمر أن هناك فرخ كائن آخر يعيش بالداخل ، وينتظر اللحظة الحاسمة حتى يكسر القشرة ويخرج .

قالتها ببساطة وهدوء ، قالتها وقامت إلى تفحص شعرى عن كثب ، ألقيتُ نظرة على لافتة التعريف الخشبية على مكتبها ، كانت تقول بأنها : أ . د . وفاء المصرى ، وبأنها حاصلة على الدكتوراة من جامعة مصرية عريقة .

لكن ليس بالنسبة لى ، حتّى الأطباء يصيبهم الخبال ، لا أنوى جدالها على أيّة حال ، صوّبَتْ الإضاءة وأقبلَتْ على بجذعها جاذبةً شعرى بين يديها بشدة آلمتنى ، هتفتُ على الفور :

ـ أرجوكِ ، دكتورة وفاء !

ابتسمت بجانب فمها :

ـ ومن قال إنى « دكتورة » ؟! إننى مثل والدتك ، قولى لى ماما .. ماما فيفى .

* * *

« فى فاى فو فام ... » .

* * *

الطبيبة التى تأكل البشر ها هى ... من يريد أن يراها يا أولاد ؟!! صفحة صدرها تسد أفقى ، وبخر أنفاسها يخنق أنفاسى ، ويدها تلف شعرى مثل شوكة من السباغيتى ، هل تدرك أنها لو حررتنى للذتُ بالفرار ؟ تتفحص فروة رأسى بيدها الحرّة ، وتقول بتلذذ وكأنما تلوك نوجة :

ـ عظيم ، عظيم ، لستِ بحاجة حتّى إلى دواء ، أتدرين ما الذى أنت بحاجته ؟

ـ ماذا ؟

ـ الحب ، أنتِ بحاجة إلى الحب .

تدور عينى دورة كاملة ، هل هى مسألة هرمونات أو شىء كهذا .. لكنها تستدرك :

ـ أنتِ بحاجة إلى محب ، يتأمل حسنك ، يشم عطرك ، ويخلل شعرك بأصابعه ، تحتاجين إلى تعويذة الحب ، شىء مثل قبلة الفارس لبياض الثلج أو الجميلة النائمة .. فهل فارسك حاضرًا ؟

ـ إنه كذلك .

الفارس موجود وكل شىء على ما يرام ، فهل ستطعمينني التفاحة المسمومة أم توخزيننى بمغزل أيتها الساحرة الشريرة ؟ .. لكنها لم ترضَ عن الإجابة ، اشتد جذبها لشعرى واحتدت نبرة صوتها :

ـ أشعر بالاستهزاء فى جوابك ، إن هذا العلاج يجب أن يؤخذ بجدّية ، يجب أن تصدّقى فى كل كلمة أقولها ليقع الأثر ، أترغبين بالشفاء أم لا ؟

أشفقتُ من حديثها :

ـ بلى .

ـ هل تؤمنين بالحب الأسطورى ؟

ـ أجل .

ـ هل فارسكِ حاضرًا أم لا ؟

ـ حاضر .

ـ وهل تبادلينه المشاعر ؟

ـ نعم ، نعم ، أجل .

تتقد عينها بالحقد ، وتقتلع خصلاتى بين أصابعها ، تهزّنى بين ذراعيها وتترنح ضفيرة سميكة أسفل ظهرها إذ تقول :

ـ شعرك مثل زهرة فى الربيع ، ولكِ بعدد شعر رأسك زهرات ، بعدد شعر رأسك لعنات !!

ـ ما الذى تقولينه ؟ ما الذى تقولينه ؟

أرتج بين يديها وترتج روحى بداخلى حتى أشعر أن لو انفتحت قشرة

رأسى لفارت منها روحى مثل سيفن أب أو حمم بركان .. ما الذى يحدث ، ما معنى هذا ، ومتى أخلص من رائحتها الخانقة ؟

تهدأ ، تلتقط أنفاسها ، تحررنى وتعود لتجلس خلف مكتبها ، لم أتحرك وكأنما قد تركت بى قيدًا من الذهول ، ألقت إلى بعلبة عبر المكتب وقالت وكأنما تودّع ضيفًا غير مُرحَّب به :

ـ قرص من هذا الدواء .

تناولتُ العلبة وقلّبتُها بين يدى باحثة عن نشرة ، ترويسة أو أية ملامح تشى بالمحتوى ، ولما عجزتُ فتحتها لأبصره بعينى ، فقفزَتْ إلى وجهى خنفساء ...

خنفساء ؟

خنفساء .

نعم ، أنا أعرف الخنفساء . أعرف كيف تشعر حين تحمل الخنفساء فى جيبك كى تصنع مقلبًا فى الرفاق ، لكن لا أعرف كيف تشعر إذا ركضتُ بها خلفك .

* * *

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

* * *

كانت تركض منى ، تخفى وجهها بذراعها وتبكى : « لا يا وردة ، أرجـوكِ ، لا تلقيهـا علىَ » ، أما أنا فأمدُ يدى إليها وأتمثل صـوت العاو : « عاوَوووووو » ، تركض ، أركض ، لاااا ، عاووو ... أرجوكِ يا وردة ، أرجـوكِ ، أنا أخاف الحشرات ، أخاف الحشرات ، أخاف الحشـــرات ... تركض ، أركض ، تسقط ، أدس الخنفساء فى قذال المريولة الكحلية ، لاااا ، عاووو ، تهب واقفة ، تصرخ ، تتلوى ، تنتفض ، ترتعش ، تتلفت ، تتفلّت ، تنكشف ، تتعرى ، تتنثنى ، تتقطع ، ترينا رقصة عجين الفلاّحة ، ترينا نوم العازب ، ترينا رقصة الدجاجة المذبوحة بسكّين بارد ...

حسنًا ، الآن : خنفساء بخنفساء ، فهل نحن خالصتان ؟ عينًا بعين ، وسنًا بسن وفقًا لقواعد القِصاص ، وهذا عقابى وقد انقضى ، وأنا الآن متطهرة .. فهل هذا هو ؟

أمّا رأيى الشخصى فإنه : لا . لأن الأمر حينها لم يقف عند حد الخنفساء ، وقد انتهى إلى الموت ، وإذا لجأنا إلى قواعد القصاص فإن نفسًا بنفس . يرتجف بدنى ، أنتبه ، تتبع عينى الخنفساء تركض على المكتب تصعد فوق الملفات وتتسلق ضفيرة صاحبتها ، أنتفض أركض نحو الباب ، وقبل أن أبلغه يصلنى النداء :

- انتظرى يا ابنتى !

أتوقف فى مكانى إثر النبرة المُستعطِفة :

- لم تدفعى ثمن الدواء ..

أدير رأسى أستمع إلى القيمة :

ـ ألفًا من الجنيهات .

أدير مقبض الباب ، وفى الخارج تبلغنى العبارة :

ـ آه .. مريضة أخرى لا تدفع ! هذه المهنة تقف على بالخسارة !

* * *

تلك الحكَة ..

أحيانًا أنساها من كثر ما اعتدتهـا ، فأشعر كم واسعة الرحمـة ورفيـق الزمان . وأحيانًا أشعر بها ـ كالآن ـ تنخر فى رأسى ولا أستطيع أن أهرش كأن أكون فى مكان عام ، ويكون هذا بذاته هو عين العذاب ، هل عذَب الله أقوامًا بمنع الاحتكاك ؟

الآن حين أقول إن « رأسى تأكلنى » ، أخشى حرفيًا تحققها . أشترى هدية لأمى فى عيد الأم ، مع وردة حمراء ، ثم أعرج على صيدلية أبتاع شيئًا للصداع ، وشيئًا للربو ، وشيئًا للنوم ، وبينما أغادرها يطلق أحدهم صفيرًا يتبعه بعبارة غزل مبتذلة :

« أكيد مامى نحلة عشان تجيب العسل دا كله ! » .

أى سخف وابتذال ، وماذا يعرف هو عن أحاسيس ومخاوف وطموح وأحلام ومشاكل فتاة مثلى حتى يغازلها ، ألا يمكن أن تكون تتمنى الموت فى هذه اللحظة بالذات ؟

مهلاً ، ليس هذه اللحظة بالضبط ، ليس قبل الخميس ، ولكن فى هذه اللحظة بالذات سمعتُ طنينًا فى أذنى ، وزوبعة من الهواء فوق رأسى، وانقضّت نحلة باتجاه الفتى الذى غازلنى ، كان الجو ليلًا ، لكن صراخه عرّفنى أن اللدغة أصابته . أفلتت منى ضحكة على المفاجأة التى لم يتوقعها ، ثم لويتُ شفاهى لأسفل : « مسكين » .. وتابعتُ الطريق.

* * *

منحتُ أمى هديتها ، وطمعتُ فى الوردة لنفسى . أيحبّنى ، لا يحبّنى، يحبّنى ، لا يحبّنى ، يحبّنى ، لا - إعع !! لمّا تكشّفت الوردة ظهرت دودة سوداء ، فى لمحة موجودة ، وبمجرد أن طرفتُ بعينى لم تعد هناك !

ألج غرفتى الحبيبة فى نهاية اليوم ، هذا أفضل شىء يمكن أن يحدث لى . يمكننى أن أطفئ الأنوار وأنعم بالاسترخاء ، يمكننى أن أجمع مكاسبى وأطرح خسائرى ، حكّة عند أذنى أهرشها ، كما يمكننى أن أحك شعرى كما أشاء .

أستلقى أفكّر بضحكة موسى ... كما أن عيونه حلوة ، وهو رجل حار الدماء ... أى !

ألم عند أذنى يشتد ، كما تلدغنى بعوضة فى نفس الوقت ، بعوضة من بعدها بعوضة من بعدها هاموشة ، أترصدهم حينًا حتى أوقع بهم ، أضرب ذراعى دون توفيق مرة بعد مرة ، ثم أنسى الأمر ، لا يمكن أن أنسى حين

أدارنى بين يديه لكى يخبرنى أنه ينتوى خطبتى ، سوف تغتاظ الرفيقات فى العمل حين تعلمن بخبر الخطبة ، ولكن على فى البداية أن أتكتم الأمر .

أسمع طنين ذبابة لا تريد أن تحط ، الغريب أنى لا أستطيع أن أراها ، لكن الطنين يقول بأنها أكثر من واحدة ، أضىء النور وأتفحص الغرفة ، وكل ما أجده هو طنطنة ودندنة وزنًا ، لو أستطيع فقط أن أرى أين هم ، يدوى الطنين يصمّ أذنى فأدرك لأول مرة لماذا لا أتمكن من رؤيتهم ، وأدرك أين هم ، أرفع عينى محاولةً كشف ما فوق رأسى ، لكنّه ينزاح مع شعرى إلى الخلف .

تخطر بذهنى الفكرة ، أُعمِل صاعق البعوض ، ثم أذهب لإغلاق الضوء وأترقب فى الفراش .. يلتمع الضوء الأزرق المغوى ، أبدأ أسمع أزيزه المحبب كلما اصطاد حشرة وأشم الشياط ، أضرب بقبضتى الهواء فى ظفر !

لكن اللحظة التالية لم تحمل أى معنى للنصر ، انطلق تيَّارًا من الهواء من فوق رأسى إلى الصاعق ، انحنت لشدّته رأسى وطار شعرى ، واصطدمَتْ بالصاعق مثل مائة حشرة ، تترنح وتسقط وتَصعَق وتذوب ، تسمع لها أزيزًا يُقطّع القلوب ، ورائحة الشياط أرعبت من بالبيت .

كان موقفًا غريبًا وعصيبًا لكنه مرّ ، وهذه هى الحياة ، المواقف الصعبة تمر ، ولو توقفت لتفهم كل موقف غريب فلن تتقدم ولو بعد دهر ، هناك مثلاً هذا الموقف : فبعدما عاد الصاعق يعمل بشكل طبيعى ، تسمع أزيزه بين الحين والحين فتعرف أن الأمور مستقرة وأنك بخير . بدأت أشعر بوخزات

تمتد من رأسى إلى عنقى إلى ظهرى ، دغدغات رهيفة لكنى أغار بشدة ، خطوات رشيقة ولكنّى يقشعر بدنى ، تتهادى بخفّة من عنقى إلى ظهرى إلى قدمى ، تتحرك إلى أسفل ، دومًا إلى أسفل ، وقع الخطوات المنظّمة يجعلنى اقول إنها لنمل ، لكنها تؤلم أحيانًا فهل بالفراش بق ؟ إنها قادرة على القفز عن المسار ، ويلى ! لم أفكر بأمر البراغيث !!

فى الحمام ، امتلأ ماء البانيو بالجثث السوداء الضئيلة ، كم مليون جثّة يحتاجها البانيو ليبدو بهذا الشكل ؟ تجففتُ وعقّمتُ جسدى بالمبيدات ، إن لم تقتلنى الحشرات فسأموت بالسرطان ، لكنّ ذلك سيأخذ بعض الوقت ، وأنا فى عرض الوقت ، فيوم الخميس لم يأتِ بعد .

لم أستطع أن أنام ، هذا شىء لا يمكن أن يُحتَمل ولم يشعر به بشر من قبل ، لأننا لا نملك ألف ضرس يتم نزعهم ، ولا ألف ظفر يتم قلعهم ، ولا ألف طرف يتم بترهم حتّى أقرّب المعنى . طبيب الطوارئ يقول بأنها فطريات بالأذن ، هذا شىء عادى ، هذا يحدث كل يوم ، لكنّه لا يفقه أى شىء ، فهذا يشبه سكرات الموت ، ونحن لا نموت كل يوم .

لا يريد أن يصدّق ألمى ، لا يريد أن يكذّب عينيه ، لا يريد أن يمنحنى مخدرًا حين يغرس أداته بعمق أذنى يقلّب صمغياتها وفطرياتها مع شىء آخر ، أمّا أنا فمن الألم يُغشى على . لا أفهم من الذى يحدد حاجته للتخدير ، الذى ينظر من الخارج أم الذى هو فى الألم حتّى الأذن ؟ لا تدهشنى الدودة السوداء التى لمحتها على الوردة ذات مرة ثم وضعها الطبيب على كفّى وقال إنها كانت بأذنى ، بقدر ما تدهشنى جرأته على دس الأداة المعدنية

الملتوية من دون مخدّر بعمق أذنى ، هذا يشبه الخطّاف الذى كانوا يدخلونه فى الأنف يسحبون به المخ فى مصر القديمة فى حالات التحنيط ، الفارق الوحيد أن هؤلاء كانوا موتى ، أما أنا فليس بعد . أقول لنفسى : دعيها تمر ، دعيها تمر ، لكن صدقًا الأمر أقوى من أن يمر ، وكما قالت فاتن حمامة : «أنا كفّرت حتّى عن ذنوب معملتهاش ! »[1] .. أزفر فى أسى ، حظّى قليل دائمًا مع الأطبّاء ، وفى النهاية كلّه يمر .

فى اليومين التاليين تعلمتُ ـ على طريقة « مزرعة الحيوانات »[2] ـ أن كل ما يسير على أربع جيد ، وكل ما يسير على ست سيئ يستأهل الحرق . وبحذرٍ ، زرتُ العديد من الأطباء الذين لا يجدون توصيفًا لحالتى لكنهم يؤكدون أن من تُدعى وفاء هذه دجّالة ولا يوجد أستاذة بتلك الجامعة بذاك الاسم ، ومع هذا ، جهّزتُ ألفًا من الجنيهات وتعقبتُ العنوان مرارًا أن أصل إليها ثانيةً وعبثًا حاولت . جرّبتُ الجاز لشعرى ، والشحم لجسدى ، اتصلتُ بشركة إبادة حشرات ، واقتنيتُ مجموعة من المبيدات أبدّل بينها فى كل مرّة ، وها أنا أدحرج الأيام حتّى تمر .

آه .. الربيع .. حدّثنى أنا عن الربيع .

* * *

---

(١) فيلم نهر الحب ، إخراج : عز الدين ذو الفقار .

(٢) رواية جورج أورويل .

تلك الحكَة ،

تلك الحكَة ..

لكنى مستعدة ، يستقبلنى موسى عند المحطَة ، ويدعونى إلى كوب من الشاى قبل زحمة العرس :

ـ هل يمكن أن أسألكِ سؤالاً ؟

ـ تفضَل ..

ـ لماذا لم تبلَغى عنَى عندما لمستُ يدكِ أول مرة ؟

ـ فهل أسألك أنا سؤالاً ؟

ـ تفضَلى ..

ـ هل كنتَ مُتعمِّدًا ؟

لم أتلقَ جوابًا ، فقط نظر لى وابتسم . أجلسنى بإحدى المقاهى ، وجلس إلى جوارى :

ـ فستانك رائع .

ـ البذلة أيضًا كانت اختيارًا موفقًا .

ـ أتعرفين كم أعشق كل ما بكِ ؟

أطرِق إلى الأرض ، فيما يتابع :

ـ فستانك الهفهاف ، شعرك الذى يتطاير مع النسمات ، حتَى اسمك « وردة » .. كل ما بكِ متسق مع الطبيعة ، منسجم مع الربيع .

تصدم الكلمة أذنى . أرفع عينى إليه دون أن أرفع وجهى ، وأحدّق فى ثبات ، يستمر :

ـ لون فستانك يناسب لون عينيكِ بشدّة .. لا أستطيع أن أصف لكِ كم أعشق النظر إليهما ..

من جديد يدغدغ مشاعرى ، أنصت إليه إذ يتابع :

ـ أعشقهما حين تتسعان فيظهر بياضهما الشبيه بالحليب ، أعشقهما حين ترَفين جفنيك كجناحى فراشة ..

أتململ فى عدم راحة ، يستمر :

ـ أعشقهما حين تلتمع حدقتاك الملونتان كعسل النحل .

أقذفه بنظرة لاذعة كلسع الزنانير ، أضرب بقبضتى المائدة :

ـ هذا هو ، يكفى إلى هذا الحد .

لا ينقضى حماسه بعد :

ـ لم أقل شيئًا بعد ، لم أتحدث عن طرفكِ الساحر حين تَزنِين من قريب أو تلوحين من بعيد ، عن مرآة حدقتك التى أرى بها نفسى وحاضرى ومستقبلى ،

عن أهدابك الطويلة التى تؤطّر عينيكِ من أعلى وأسفل وبينهما ... ... عنكبوت !

ـ ماذا ؟

ـ ابقى كما أنتِ لا تتحركى .

أحاول رفَ جفنى لطرد العنكبوت لكنى لا أستطيع ، شبكة من نسيج كثيف تحيك عينى اليسرى من بين الرموش ، أهز رأسى فى فزع لكنَ موسى يثبّتنى :

ـ اهدئى ، لا تتحركى ، سأنال منه .

أهدأ ، أُسكّن أعضائى ، لكن قلبى خارج السيطرة ، يكرر موسى المحاولة ، لا أعرف لماذا يأخذ كل هذا الوقت ، يهتف :

ـ إنه يتفلت ، إنه مقزز ، أخشى أن يدخل إلى عينيك !

لما رأيتُ ذعره فزعت ، لكنه لم يسقط فى عينى ، بل سقطت ذبابة ، حمدًا لله أن حجبتها الخيوط ، صرخت :

ـ ألا تستطيع أن تزيح عنكبوتًا ، أى طراز من الرجال أنت !

بثّت عبارتى الحميّة فى دمائه ، فهبّ على ساقيه ، واقتلع العنكبوت مع الخيوط دفعة واحدة ، مع بعض الرموش . رحتُ ألهث فى ترهل مقوّسة الظهر ، أما هو فلا بد أنه لم يستعب الأمر . استمر الصمت للحظات ، قبل أن أقوم بالمحاولة :

ـ أعتذر ... بشأن .... .

ـ لا يهم .

قالها قاطعة وحاسمة ، فعدنا إلى الصمت . ثم نهض ودفع مقعده سائلًا :

ـ هل تفضّلين الاتجاه للقاعة ؟

هذا سؤال محسومة إجابته سلفًا ، لا بأس . ننطلق فى الشارع ، أقول على سبيل جرجرة الحديث :

ـ جميلة كفر الشيخ .

يقول باقتضاب :

ـ أعجبتكِ ؟

ـ أحب الريف ، أحترم خصوصيته ، ناسه ، لهجته ، رائحته ، أساطيره ..

ـ أساطيره ؟

ـ بالتأكيد ، كل قرية لها أساطيرها ، هناك قرية قريبة من قريتكم تسمّى « أم الشعور » ، هل تعرف أسطورتها ؟

لكنّه يسرح بخياله بعيدًا ، ويقول وقد بدأت عقدة لسانه تنفك :

ـ هل تعرفين أنتِ أسطورة ميدوسا ؟(*)

(*) أسطورة يونانية عن فتاة لعنتها الآلهة فتحول شعرها إلى ثعابين ، واستحال من ينظر لعينيها إلى حجر .

أرفع يدى بحركة تلقائية أتفقد شعرى ، ثم أجيب بعدائية :

ـ ما الذى تقصده ؟ لاحظ أن كلامك جارح !

تبدو عليه البلاهة ويعود إلى الاقتضاب :

ـ لا شىء ، فقط رأسها مزدحم بعض الشىء !

أبتلع كلماتى ، أيتها الغبيّة ، لا يجب أن تُلفِتى انتباهه ، سوف أغيّر الموضوع ، أضحك وأقول :

ـ هل تصدّق ما وقع قبل يومين ؟ كنتُ أسير فى الشارع وأراد أحدهم أن يستظرف ويعاكسنى ، فقال لى ....

أنتبه أننى لا أُصلِح الأمر ، أتدارك الموقف قبل أن أحكى عن سوابقى، وللسخرية ، لم يعد بحاجة إلى الحكى ، سيرى بعينيه كل شىء : تهب خليّة نحل كاملة يدفعها الهواء نحوى تصطدم بوجهى تردينى أرضًا وتغلّف وجهى بالكامل مثل الخوذة الواقية من النحل ! تغلق فمى ، تسد أنفى ، لا أحصل على الهواء ، أختبر الموت ، إنه أمر بسيط جدًّا ، قريب جدًّا ، كنتُ أشاهد لحظات الاختناق فى الأفلام فأقول بأنها تستهلك بعض الوقت ، لكن عن تجربة ، خذ كلامى ثقة ، لن تحتاج لأكثر من دقيقتين لتفارق بسلام ، فهو لا يستهلك الوقت .

خلع موسى الجاكيت وعمل بكل جهده على دفع النحل ، ثم رفعنى إلى حضنه يملّس على شعرى ويطمئننى ، أدرك أنى تعرضتُ حالّا لمحاولة قتل،

وتعرضتُ عند الطبيب لما هو ألعن من القتل ، لم أكن أتصور يومًا أن فتاة هشّة مثلى تصمد أمام كل هذا ، إن ما يحدث معى ليفوق العقل ، ولكن حمدًا لله أنه هنا ، حمدًا لله على نعمة الحضن ، فهذا شىء آخر لم أختبره قبل اليوم .

فى القاعة أراحنى إلى طاولة ، وجلس يطمئننى ، استعدتُ روعى بمرور الوقت ، يكفينى ما رأيتُ من لهفته علىَّ ، رأيتُ حبّه فى عينيه وقد بخع نفسه من أجل أن يحفظ حياتى لا يخشى لسع النحل .. أنتبه ، وأتنصّت : حفيف الثوب ، هذا لا بأس به ، لكن حترشة حشرات ! لا بد وأنه يسأل نفسه : من أين يأتى هذا الصوت ؟

ـ هل تسمعين هذا الصوت ؟

ـ أى صوت ؟

ـ مثل صرير صراصير الحقل ...

أسعل :

ـ فلا بد وأنه من الحقل .

يهز رأسه نفيًا :

ـ لن أرتاح حتى أعرف من أين يأتى هذا الصوت !

أين أهرب من رأسى ، أين أهرب من شعرى .. ما كان يجدر بى أن

آتى هنا ، لم تكفِ استعداداتى ، وماذا كنتُ أتوقع من فرح فى قرية ! أحاول تغيير الموضوع :

ـ ولكن الجو جميل اليوم ...

يهب النسيم رافعًا وخافضًا خصلات شعرى الهفهاف ، ومن بينها يسقط شىء على الأرض ، شىء كبير بما يكفى لتراه ، شىء ثقيل بما يكفى ليرنّ ، شىء سريع بما يكفى لتدهسه بالشبشب ! كان موسى ينظر إلىَّ يردُّ حديثى ، ولكن عينه انحنت مع الشىء الساقط ، فيما لسانه يردد ما أنتوى سلفًا :

ـ جميل بوجودكِ .

حسنًا ، هذا هو ، لا أنتظر حتى أستبين الشىء ، ألتقط حقيبتى وأفر مغادرة ، يتبعنى جَزِعًا :

ـ وردة ! ما الأمر ؟

تلك الحكّة ..

تلك الحكّة ..

ـ يجب أن أعود للبيت حالًا .

ـ لا زال الوقت مبكرًا ، أنا سأوصلكِ لكن الفرح لم يبدأ بعد !

تلك الحكّة ..

تلك الحكّة ..

ـ هذا عرس أختك ، أنا سأعود ، وابقَ أنت .

ـ انتظرى ساعة واحدة ، ساعة وسأوصلكِ بنفسى ، أرجوكِ لا تفسدى فرحتى ، أرغب بوجودك إلى جوارى فى هذا اليوم ، أرغب بتعريفك إلى أمى وإخوتى ...

حسنًا ، ولكن ... .

تلك الحكّة ... ...

لقد اشتدّت كثيرًا اليوم . أعقص شعرى إلى أعلى؛ على الأقل لا مزيد من الأشياء المتطايرة اليوم ، أؤكد عليه :

ـ ساعة واحدة .

ألتف عائدة إلى القاعة ، ومن خلف عنقى يأتينى صوته :

ـ ما هذا ؟

أتوقف حيث أنا .. أشعر أنامله الباردة على قذالى تلتقط شيئًا بعد شىء ، يبسط كفّه أمام وجهى ، ويرمقنى بنظرة متسائلة ، أنظر إلى كفّه نظرة عابرة ، عندى اليوم تفتيش على الشعر ، أقول بنبرة من لم يعد لديه ما يخسره :

ـ هذا قُمّل .

ـ هل ستشرحين لى الأمر ؟

ـ ليس قبل أن تهدأ رأسى . إن رأسى تأكلنى ، توخزنى ، تقتلنى ، ابحث لى عن فلّاية .

ـ ماذا ؟!!

فلّاية ..

فلّاية ..

فلّاية !!

ألا تعرف الفلّاية ؟!!

فى مَضْيَقة المنزل أسدل شعرى الأملس ، ويجلس من خلفى يغرس المشط الدقيق بعمق شعرى ، يمشّطه إلى أسفل مقتلعًا فى طريقه مئات الكائنات التى لا أعرف ، ولا يعرف ، ولا أحد يعرف ماذا يفعلوا هنا !

يحرر المشط فى أول مرة ثم ينفضه إلى بعيد ، ألوى رأسى وأهتف :

ـ ما الذى تفعله ، ليس هكذا !

أتناول منه المشط شارحةً :

ـ بهذا سيعودون ثانيةً ، لكن هكذا ... .

أستخرج قملة عالقة ، أدعسها بين ظفرى الإبهامين ، فتصدر طقطقة بسيطة ، تشبه تكتكة القلم ، أو فرقعة فقاعات التغليف البلاستيكية التى تبطّن الأجهزة الجديدة ، صوت محبب كنّا نتسلى به صغارًا ، وفى عمق القرف ،

ثمة متع طريفة بالحياة تجعلنا لا نقتل أنفسنا حالًا . كلّما غرس المشط كلّما جنى أكثر ، اعمل ، تحصد ، يهاله المنظر :

ـ ما هذا ! ألا يوجد لهذا القُمّل آخر ؟

أردت أن أهوّن عليه الأمر :

ـ هل تعرف أن القُمّل خيرٌ فى الحلم .

ـ هذا فى الحلم !

لا يبدو مزاجه رائقًا اليوم ، لا أعرف ما الذى عكّر مزاجه ، لا يعجبه القُمّل ؟ لن يدرك قيمته حتّى يرى ما هو أسوأ . ليتنى أنا أحلم بالقُمّل، ولكننى أحلم بالخنفساء ، أيضًا لطيفة الخنفساء ، أنيقة باللونين الأحمر والأسود على جناحيها المُرقّطيْن ، صيحة موضة شهيرة أطلقتها الخنفساء وصارت علامة مميزة لأناقة السندريللا سعاد حسنى ، والتى تعدّ بدورها علامة مميزة للربيع ، ومن منّا لا يحب الربيع !

حتّى اسمها حلو : الخنـ/فساء ، الدعـ/سوقة ، الجعران المصرى القديم، الحشرة المقدسة ، قوة الخلق ، جالبة الحظ ، تميمة الحياة ، وأيضًا اسمها حلو : الجُعـ/راااان .

أشعر بسلام مع نفسى أجهل مصدره ، هل مصدره مقطع «ران» فى لفظة «جعران» ؟ لا أعرف ، لكنى أعرف أنه لا أحد يبقى مع حبيبته بعد أن يقوم بتفليتها ، ما لم يكونا قردين ، تلك حالة خاصّة ، أمّا أنا فأتكلم فى المُطلَق .

فمن أين تأتينى السكينة وتغشانى الطمأنينة ؟ أتذكر طبيبتى فيفى حين قالت لى : «أنتِ لستِ حيّة أو ما شابه .»

فهل أنا ميتة ؟

لكن الحكّة ..

الحكّة ...

على الأقل تُعلِمنى الحكّة أننى لازلتُ أحيا . ينتهى موسى من مهمته فيقف ينفض يديه يمسحهما بظهر البدلة ، لونه شاحب والتقزز على وجهه يصيبنى أنا بالغثيان ، يطلب لى سيارة ويرسلنى إلى البيت ، لا ينتظر أن أشكره أو أثنى صنيعه ، ألج السيارة أهرش رأسى بعنف فتتشقق البقعة ، لم ينتظر أن أحكى الحقيقة أو ألفّق قصّة ، أسمع صوت تكسّر قشر بيض ثم خروج فرخ ، لم ينتظر ما يمكن أن يحدث بيننا بعد أن يموت القُمّل ونصبح وحدنا ، تتلوى أفعى وليدة فوق رأسى تتماهى بخصلات شعرى تسقط فى قذالى ، لم ينتظر حتّى أن يداعب طفلتنا أو يمنحها اسمًا ، أدس يدى فى قذالى أستخرجها ألقى بها من نافذة السيارة ، لم ينتظر أن يسمع أول فحّة أو يرى الحبو . قلنا إن ما يمشى على أربع جيد ، ما يمشى على ست سيئ ، فماذا عمّا يمشى على بطنه ؟

وما حاجتى إلى ميدوسا كاملة وأفعى واحدة ستقوم بالغرض ؟

ثم لماذا لا تخبرنى : ألازلتَ ترى القُمّل سيئًا الآن ؟

♪

« لما النسيم بيعدّي

بين شعرك حبيبتي

بسمعه بيقول :

آهـــــــــات »(*)

♫

(*) أغنية لما النسيم ، محمد منير .

عن العاق القادم بعد عهد لا التهامنا

تستدرك وردة بصوت تكبحه الدموع :

ـ كنا نمرح .. هذه كانت فكرتنا عن المرح ، كما نترك العلكة على مقعد ميس منى ، ثم ماذا ؟ «هذه تحية العاق القادم» ، ونضحك . كما نلصق نبلاً بتورة ميس عطيات ، ثم ماذا ؟ «هذه تحية العاق القادم» .. هاهاها .. هاها .. نجذب الحجاب من فوق رأس أحلام ، و«هذه هي تحية العاق القادم» ، كان المفترض أن نضحك ، فما الذي يحدث ؟ وكيف كان لنا أن نتنبأ بكل هذا ؟

تتدخل ماهينار ببلادة :

ـ ستضحكين كثيرًا جدًا ، صدقيني .. ست جثث متفحمة الشعور في فساتين سهرة بباخرة على النيل ، ثم ماذا ؟ « هذه تحية العاق القادم » .. هاهاها .. هاها .. هاهاهاهاها ... هاهاها تقلبت من آسيا ضحكة على إثرها، وترفع نادية يدها بوجه ماهينار :

ـ كفى ! تحلي ببعض الإحساس ، أعصابنا لا تحتمل .

تستدير إليها ماهينار متحفزة :

ـ وهل أعصابي أنا التي تحتمل ؟ وما الذي فعلناه من أجل هذا كله ! لم يكن الأمر أكثر من لعب عيال !

ـ لا تنسي أنها ماتت .

تقولها نادية ، ثم تبتلع ريقها ، وترفع طرف عينها وتخفضها نحو الطفلة الميّتة التى تشاركنا المائدة ، كانت تدس الشفّاطة فى العصير وترشف منه حتّى آخر قطرة محدِثةً صوتًا ، فأخذَتْ أم الشعور الكأس من يدها زاجرةً إيّاها برفق : « هذا عيب » .. فيما بدا لى أنهما أمٌ وابنة سويّتان جدًا ، لابد أن الخلل بنا نحن !

ابتلعت ماهينار ريقها وعادت تقول :

ـ ولا تنسى أنها كانت مُصابَة بالسرطان حيث لم يكن له علاج فى ذاك الوقت ، أى أنها آجلاً أو عاجلاً كانت ستموت !

ويبدو أن العبارة أثارت نادية التى أعلت من صوتها لأول مرة فى تحدٍ :

ـ كلنا آجلاً أو عاجلاً سنموت ، لكن هذا لا يمنع أن هناك نشاطات تعجّل من ذاك الموت ، لو أنها فزورة لقلتُ : القتل .

أوه-أوه . نادية/ماهينار : واحد/صفر . سكتنا وكأن على شعورنا المُلبكة الطير ، من أجل الحق أقول : لا يعجبنى الارتكان إلى حجة «لعب العيال» لتبرير الذنب ، لكن كذلك لا يمكن أن يكون العقاب هو القتل !

تفيق آسيا من الصدمة فتهب تمسك بعنق نادية وتقول بصوتها الأجش :

ـ لو أنكِ قتلتِها يا نادية فلتعترفى عن نفسكِ وحدكِ ، لا داعى لأن تورّطينا كلنا بهذا الأمر !

أخلل بينهما وأُجلِس آسيا ، تعقد أم الشعور ذراعيها وترجع بظهرها فيما بدا أنها مستمتعة للدرجة القصوى ، ومن جديد يعمّ الصمت فيفسد متعتها ، ولكنّها لن تسمح له ، نظرت إلى وقالت :

ـ لم تتكلمى منذ البداية يا ليلى ، فما رأيكِ ؟

سعلتُ :

ـ أنا ؟

ثم استجمعتُ شتاتى :

ـ لا أدرى إن كنتِ ستصدّقينى لكننا لم نقتلها ، لم نعلم حتى بموتها ، فقط غابت عن المدرسة منذ ذاك اليوم ، وبعد عدّة أيام أخبرنا المدرّسون بأنها لن تعود ، ظننا أن ربما اشتد عليها المرض ، ربما سافرَتْ ، ربما ماتَتْ ، لكن وما هو الموت ؟ الكبار يقولون إنه أن تسافر للسماء ، لم نكن نعلم ما الموت ، فضلاً عن القتل ...

صَمَتُّ ، ثم استدرَكتُ :

ـ حتّى اسأليها !

تصدر أم الشعور همهمة .. يعلو صوت ريفال نائحةً :

ـ صدّقِينا .. صدّقِينا .. نحن لم ... ...

تردعها أم الشعور بنبرة عاصفة :

ـ اخرسى أنتِ . دوركِ لم يأتِ بعد .

ثم تستند بكوعها إلى الطاولة ، تريح خدّها على كفّها وتنظر لأعلى :

ـ هل تذكرون ... هل تذكرون ذاك اليوم .. ؟

ثم تلوى عنقها نحو العريس بالخلف :

ـ لماذا لا تشاركنا يا فارس ؟

* * *

« يا مطرة رخّى رخّى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

* * *

شعر أملس يداعب رأسًا أملس ، هذا لا يؤلم ، فعلامَ البكاء ؟ ثم قصّت الفتاة أطراف شعرها بالمقص ، وألصقتها فى الرأس الصلعاء بالصمغ ، ما رأيك الآن ؟ لم تعودى قرعة قرعة ! عِندَك حتة شعرة .. تنطلق ضحكاتها ، تنفجر ضحكاتهن ، قرعة قرعة ، ولا حتة شعرة ...

هاهاها

هاهاها

يتوقف الضحك فجأة ، تقول الزعيمة بغلظة :

ـ هذه تحية العاوَ القادم .

يلملم العاوَ القادم أذياله ويرحل ، يجرجر العاوَ الراحل غنائمه من خلفه : أنتِ ضحكة أو اثنتين ، تكفيان . أنتِ أخذتِ الكثير من التوسلات ، دعى الباقى لى . أنتِ حصلتِ على الحجاب ، قصّيه شرائط لشعركِ . أنتِ لم تجدى شيئًا تحت الحجاب ، وضعتِ بعضًا من عندك . أنتِ ! غريب أمركِ ! أتصارعين أختكِ من أجل الحجاب ؟ لماذا تطمعين فى غنيمة لم تتعبى بها ، أنا كنتُ هناك ، ورأيتُ كل شىء .

أمّا أنتِ ...

أنتِ بعد لا تصدّقين أنهم رحلوا ، العاوَ رحل ، والخنفساء فرّت ، ترتعشين ، تتلوين ، لا ، لا ، هذه ليست الخنفساء ، إنها آثار الشعر الذى لم يعلق بالصمغ وسقط يتجمع فى ياقتك ، ترفعين الياقة عاليًا ، تعرفين أنها لن تمتد لتخفى رأسك ، لكنها أمنية جديرة بالمحاولة . تشهقين شهقة نهاية العذاب .. تستنشقين رائحة المطر فى الشتاء ، رائحة الطرقات المغسولة ... رائحة جميلة ولكنكِ لا تحبينها ، لا تعرفين السبب لأنكِ صغيرة ، السبب أنها ارتبطت لديكِ بالعذاب .

تتلمسين حقيبتك وسط الخراب ، تتحاملين على نفسك وتنهضين ، تصطدمين بأعين مفزوعة ، أعين مفجوعة ، إنها أعين حبيبك فارس ، وهى أعين جميلة ، ولكنكِ لا تريدين أن ترينها ثانيةً ، لا تعرفين السبب لأنكِ صغيرة ، السبب أنه رآكِ ذليلة .

تتلمسين شعرات وهمية فوق رأسك ، تخفين بيديكِ عريكِ ، تتمنين حجابك كأمنية أخيرة ، والقدر كريم فى اللحظات الأخيرة ، تمتد إليكِ يدّ بحجابك ، هذا هو ، هذا ما أردتِه منذ البداية ، لكنكِ تدعيه يسقط ، وتُسقِطين الحقيبة . تريدين أن تركضى خفيفة ، فى طريق بعيدة ، ليس لها نهاية .

رائحة المطر فى الشتاء ، رائحة الطرقات المغسولة ، وأعين حبيبك الصبوحة ، كلها أشياء جميلة ، وأيضًا السيارة القادمة جميلة .. تستقبلين السيارة بأذرع مفتوحة ، لا تعرفين السبب لأنكِ صغيرة ، ولأنكِ ستظلين صغيرة .

رائحة الدم المُرَاق ، فوق الطرقات المغسولة ، بالمطر فى الشتاء ..

أيضًا جميلة .

* * *

« بنت أختى قرعة قرعة ،

مفيهاش ولا حتة شعرة » .

* * *

ترتفع ضحكة مجلجلة ، نلتفت فإذا هو الفتى الممسوس يتابعنا بشغف فيما يقول :

ـ أنا مذهول !!

لا تُعره أم الشعور اهتمامًا ، تنتهى من الحكاية ، فترفع الطفلة على ساقيها ، وتتحدث إلينا :

ـ الآن سأسأل سؤالاً ، وترفع يدها من تعرف الإجابة : دم هذه الطفلة فى رقبة من ؟

لم ترفع أحدنا يدها وبالأحرى هبطنا قليلاً فى الكراسى ، همهمت أم الشعور ، وعادت تقول :

ـ فمن أين نحظَى بمن يُغششنا الإجابة ؟

هتفت ريفال فى لوعة :

ـ ولماذا أنا ! لماذا أنا ! كلنا سواءٌ فى الجريمة فلماذا تأخذيننى أنا ... !!

تشتعل عين أم الشعور ، وتلتف جديلتها فى الهواء تسمع لها صوتًا كلسع السياط ، ثم تعود تضم ريفال معتصرة أضلاعها بالداخل كأسوأ من ضمّة القبر ، وتهتف بغل :

ـ ألم أخبركِ أن تخرسى ؟

تخرس ريفال إلى حد أننا لا نسمع لها صراخًا مع هذا العذاب ، تنطفئ أعين أم الشعور ، تُنزِل الطفلة عن ساقيها وتقول :

ـ ماذا كنتُ أقول ؟

تُسرِع نادية بتذكرتها :

ـ قلتِ نحظى بمن يغششنا الـ ...

ـ نعم ، نعم ، أحضروا فارسًا !

تحضره المساعدة التى تقيّده ، وتخلل له مقعدًا ، يجلس إلى جوار الطفلة ، فتتلمس تلك يده .. يمكننى أن أرى الجزع على وجهه ، يمكننى أن أستشعر القشعريرة على جلده ، أكبر خطأ . حين تلمسك حبيبتك التى ماتت منذ عشر سنوات داعب يدها كمحب مشتاق ، واحتفظ بانفعالاتك لنفسك . تسأله أم الشعور :

ـ ما الذى جعلك تسلك هذا الطريق فى ذاك اليوم ، هل أنت معتاد عليه ؟

ـ لا أذكر ، ليس طريقى ..

ـ بل تذكّر ، لماذا لم تسلك طريقك ؟

ـ أخبرونى أنه مغلق بحادثة .

ـ ولماذا لم تسلك طريقًا آخر ؟

يجفف فارس عرقه :

ـ أخبرونى أن هناك عرضًا للأراجوز بهذا الطريق ..

ـ وهل وجدتَ عرض الأراجوز ؟

ـ لا ، لم أجده ، قالوا : عرضًا ممتعًا ، قالوا : سنمرح !

ـ وماذا أيضًا قالوا ؟

يعتصر فارس جبينه :

ـ قالوا : ستعرف كل شىء ، قالوا : سنريك بعينيك !

ـ من الذين قالوا ؟

ـ لا أذكر ، لا أذكر ..

ـ هل هم كثير ؟

ـ بل واحدة .

يفغر فارس فاهه ، ويهز رأسه مُسمِّيًا :

ـ ريفال .

عادت أم الشعور تسند ظهرها إلى المقعد وتعقد ذراعيها فى رضا :

ـ شهد شاهد من أهلها ، ومن يشهد للعروس مثل عريسها ؟!

ثم إلتفتت إلى ريفال بظفر :

ـ ألا تزالين لا تعرفين لماذا أنتِ ؟

رنَت ضحكة المأذون عاليًا :

ـ سوف تجنّنونى والله ! والله سوف تجنّنونى !!

بادله الممسوس ضحكًا بضحك :

ـ ومن سمعك ؟!

ـ أنت ممسوس ، تُعامل معاملة المجانين ، أمّا أنا فكيف سأزوّج الناس هكذا !!

ـ ولماذا تزوّجهم ، العالم لا ينقصه مجانين يا أخى !

ثم ضجّا معًا بالضحك ، أما أنا فلم أتمالك نفسى ، التفتُّ إلى ريفال بذهول :

ـ هل جننتِ ؟ أى شيطانة أنتِ ؟ ما حاجتكِ إلى خطف حبيبها وقد كنتِ أجمل فتاة بالمدرسة وكل الصبية يتهافتون عليكِ ، أمّا هى فيتيمة مريضة وغير جميلة وخاصةً من دون شعر ، هل استكثرتِ عليها أن يحبّها أحد ؟

وهرشت وردة رأسها :

ـ صحيح الكعكة بيد اليتيم عجبة !

قالت نادية :

ـ ليقل الناس عنكِ جميلة ، ولكنى أقول : ما أقبحك !

وحدجت ماهينار ريفال بنظرة حادّة ثم تفلّت عن جانبها ، التفتتْ ريفال إلى آسيا وقالت فى استكانة :

ـ هل تريدين أن تقولى شيئًا أنتِ أيضًا يا آسيا ؟

ـ وماذا أقول ! ما أخذته القَرَعَة تأخذه أم الشعور !

ـ فهل تسمحن لى بالدفاع عن نفسى ؟

أشارت إليها أم الشعور بذقنها ، وأرخت قبضة الضفيرة قليلاً .

* * *

ㄷ ㄷ ㄷ

عن الجميلة التي حصلت على نهاية حزينة

«يوم وُلدت: ألقت على أمي اسمي مثل تعويذة: «ريفال».

لم يفهم أحد معناها، والذي يسألني عن اسمي يشفعه بعبارة: «وماذا يعني؟»، ومن قال إنني أهتم إن كان المعنى معلومًا، فمن غير الضروري أن نفهم التعويذات، المهم أن تقوم بدورها، وأحصل بالفعل على «الشعر الطويل».

يقولون عني: فتاة جميلة..

وحتى في ذاك السن الصغير، الجمال يذلل الكثير من العقبات، ينير الوجه، يفتح القلب، لن يضربك مستر كريم لأنكِ نسيت الكشكول، لن تتنمّر ميس منى لأنكِ ألصقتِ العلكة، وستحصلين على صف من العشاق الصغار، لكن فارسك لن يكون هناك.. لأنه منشغل بمن تدعى «أحلام».

ومن هي أحلام؟ يقولون: الفتاة المريضة، لكنهم لا يعاملونها كالفتاة المريضة، بل: الفتاة الميتة، تجلس في دكة وحدها، لا يلمسونها ولا يعطونها، لا يهتمون لحضورها أو غيابها، الكل يعلم أن أيامها قليلة، الكل يعلم أنها مسألة وقت، إلا واحد، إلا فارس، كان يعاملها كالفتاة الأميرة.

وماذا ينفعني جمالي حينها، وهو متعلق إلى هذا الحد بها، أوليس الحي أولى من الميت؟ وهل أنا التي دسست كل هذا الحب في قلبي الصغير؟

أردتُ أن أمنحه خطةً بديلةً حتَّى إذا ما جانت اللحظة لا يحزن إلى هذا الحد ، وقد احتاج منى لعشرات الأيام التى أبكى معه فيها ليصدّق حزنى عليها ويقرّبنا الحزن من بعضنا ، فإذا أضفنا لهذا قسامة ملامحى يصبح طبيعيًا أن يبادلنى المشاعر ، وماذا يحتاج المرء أكثر من حب غزير فى هيئة جميلة ؟ ومثل الرجال الشرقيين ، يفضّل فارس البشرة البيضاء ، كما يفضّل الشعور الطويلة ، فهل يجب أن أدفع ثمن أن خلقنى الله جميلة ؟»

تدخلَتْ مجيبة :

ـ أنتِ لا تدفعين ثمن الجمال ، أنت تدفعين ثمن الخسّة والنذالة ، فقد غدرتِ بتلك المسكينة .

أكملت وكأنما لم تسمعنى :

«ولقد صدَقتُ ، ورعيتُ هذا الحب لعشرة أعوام كاملة ، وحتَّى لحظة العرس الذى تجلسن به الآن مثل عجائز الفرح ، تهززن رءوسكن ولا يعجبكن العَجَب ، تلوين أفواهكن وتطلقن السباب ، كلكن الآن شريفات ترفعن أصابع الاتهام نحوى ، كلكن تحقدن على ثرائى وحسنى وزيجتى المبكرة ، كلكن تقلن فى أنفسكن : لماذا هى العروسة ، ونحن عجائز الفرح ؟

لكنّى أطمئنكن :

يقولون عنى فتاة جميلة ، وفى كل الحكايات هناك فتاة جميلة ، ليس من أجل أن تشعر الفتيات غير الجميلات بالحزن ، بل من أجل أن يشعرن بالعدل ، حين تتلقى الفتاة الجميلة نهاية حزينة .

يقولون فتاة جميلة ، وقد حصلتُ على جزاء الفتيات الجميلات ، ولم أعد كذلك .

ثم ترفع ريفال الغلالة عن رأسها ، يتبدى وجهها لأول مرة ، وتصرخ كل منّا كاتمةً فمها .

كنتُ أعرف أنها تخفى كارثة ، ولكن لم أتصور أنها إلى هذا الحد ! ويُصعَق عريسها كذلك لرؤيتها ، فتسر إلينا ماهينار :

ـ القادرة ! كيف كانت تنتوى أن تخفى عليه شيئًا كهذا ؟!

ويشرئب الفتى الممسوس بعنقه يستطلع المنظر ، ثم يسترسل فى ضحكة طويلة مُعبّرة ، استحالت إلى ضحكة بلا معنى ، وامتدت حتى أشعرتنى بالقلق ، ملتُ على نادية وكنتُ أعتبرها الأعقل بينهن ، وقلتُ موشوشةً :

ـ هل حضَرَ الذى عليه أم ماذا ؟ هل يجب أن نخشاه ؟

أشاحت بيدها وقالت :

ـ هل نترك أم الشعور ونخشاه هو ؟ ثم إنى بدأتُ أعتاده كصديق قديم .

ـ حسنًا ، كما ترين .

ثم أعدلتُ رأسى وعدتُ أنظر إلى ريفال . الغريب أن وجهها فى صور الشاشات كان بخير ، بنفس هذا الفستان والإكسسوار والعريس أيضًا ، فمتى نَمَتْ لها هذه اللحية الطويلة والشارب الذى يحجب شفتها ؟

و « متـى ؟ » سؤال فلسفى فى حـد ذاته دون أن يحتاج إلى تكملة :
« متى ؟ » ، « متى ، إذًا ؟ » .. وكل واحد ستتكفل آلامه بإكمال سؤاله :

متى نخرج من هنا ؟

متى يأتى النصيب ؟

متى تضحك الدنيا ؟

متى نصر الله ؟

متى هذا الوعد ؟

متى يوم القيامة ؟

و« متى » حين يكون جوابها فى المستقبل ، فإن الصمت أفضل ، أما حين يكون جوابها فى الماضى ، فإن الصمت جريمة ... متى نَمَتَ هذه اللحية ، فلتنطقى الآن حالاً قبل أن أكسّر رأسك !

لكن الإجابة أذهلتنى أكثر :

ـ فى كل لحظة ، شيئًا يسيرًا . أحف جسدى فأصبح حورية ، أحصل على صورة أو اثنتين للذكرى ، ثم أسدل الستار ، هكذا أوحى بالاحتشام ، أوحى بالعفّة ، وأرتاح قليلاً من آلام الحف . لو لم أقص شعرى لظل ينمو فى كل لحظة يعرقلنى ويكبّنى على وجهى . أنا أحتفظ بمقص صغير دائمًا ، أحمله بين طيات ملابسى ، انظروا ، انظروا ...

أخرجت المقص من صدرها ، ارتص إلى جوار المبيد ، المجفف ، واقى الشمس ، وحجاب آسيا . مالت على نادية وقد بدا أننا شكّلنا ثنائيًا ظريفًا ، معيدتين أمجاد الدكّة الواحدة :

ـ أتظنين أنها ستُخرِج ماكينة حلاقة ؟

ـ أنا أشفق على فارس ؛ ما أكثر المفاجآت التى تلقّاها اليوم !

أما فارس الذى لم يزل فاغرًا فاهه ، فقد خرج مؤخرًا عن شعوره :

ـ وتقولين لى احلق ذقنك لأنها تشوّكنى !!

كتمنا ضحكاتنا ، وإن لم يكتمها المأذون الذى قال للعريس :

ـ وما كان عليكَ لو سمعتَ كلامى بخصوص الكمبيالات ؟

سالت دمعة من عين ريفال ، بدأت تحل الطرحة وتقص أطراف شعرها بسرعة محمومة ، تقص زوائد شنبها وذقنها :

ـ نعم قصصتُ شعرى وألصقته بها ، هذا شعر فائض ، هذا شعر لا أريده ، هذا شعر لا أمانع أن تأخذه .

ثم نظرت إلى الطفلة وقالت :

ـ خذيه ..

التفتت إلى آسيا وتابعت :

ـ انتفعى به ، خلّصينى منه ، ارحمينى من لعنة الشعر الطويل .

كان منظرها غريبًا إذ تتحرك الشعيرات فى محل شفاهها بينما تتحدث ، لكننى ولأول مرة أتعاطف معها ، وأين كان يمكننى أن أرى منظرًا طبيعيًا داخل هذه القاعة على أية حال : رءوسهن المُلبكَة ، أم الخالية ، رأس أم الشعور ، أم الطفلة الميتة ، الرءوس المائلة للحضور ، أم النادلات مقطرات الشعور ، كما أنى لا أثق بأن أحصل على ما هو أفضل ، إذا ما نظرتُ فى المرآة .

مسحَتْ ريفال عينيها وقالت :

ـ لا أنسى هذا المشهد .. فى حصّة العلوم ، شرَحتْ لنا المُدرّسة بأن الشعر ينمو من طبقة « الأَدَمَة » بالجلد ، حينها هتفتُ بسؤال بدا منطقيًا : « ولماذا ينمو لنا هذا الشعر ؟ » .. تعثرَتْ المُدرّسة للحظة ، ثم صاحت وقد ظفرت بالإجابة : « أنتِ أصلاً حيوانة » .. انفجر التلاميذ بالضحك ، ولم أفهم سر الإهانة ، لكنها أوضحت أنها إنما قصدت أن الإنسان ينتمى إلى طائفة الثدييات التى تتميز بغطاء من الشعر ، أوضحت ما استطاعته ، وحين انتهت الحصّة كنتُ لا أزال لا أفهم : لماذا ينمو لنا هذا الشعر ، ولا فهمتُ سر الإهانة .

تتوقف لحظة ، تنظر إلى الأرض وتقول :

ـ أخشى الآن إن سألت : « لماذا ينمو لى هذا الشعر ؟ » أن تظل الإجابة : « أنتِ أصلاً حيوانة » ..

ثم أسدلت رموشها الطويلة واسترسلت بالبكاء ، نظرت أم الشعور للساعة التى سقط أغلب رملها وقالت :

ـ ليس أفضل وقت للبكاء ، دقيقة واحدة بعد منتصف الليل ولن ينفع اى شىء ، ويضيع جهدى هباءً ، والآن .. وقد تعرّف الجميع إلى الجميع ، وأتممنا جلسة الوفاء ، فقد حان الوقت لبدء الزفّة الحقيقية . أرجو أن تكونن استمتعتن بالسهرة .

تدخّل المأذون من غير دعوة :

ـ جدًا ، أكثر من مسرحية لعادل إمام !

فيما لم ينجح حديثها فى تهدئة ريفال التى علا نحيبها :

ـ صدّقونى ، أنا أحببته بصدق ، صدّقونى ، ليس الأمر فقط أن أخطفه منها ، لو لم أكن أحبه لتخليتُ عنه بعدما صار لى ، لكنّه أمامكم فاسألوه لو كنتُ أستطيع أن أحيا دونه !

الغيبة ! لا تريد أن تفهم أنها لن تحيا دونه ، هو الذى عليه أن يحيا دونها ، وربما صار علينا أن نساهم فى مواساته ، قالت ماهينار مداعبةً :

ـ اسمع يا فارس ، هل تختار بيننا ، أم أن الشرع يسمح بأربعة ؟

وقت غريب للدعابة ، لكن هكذا نحن المصريين ، أما الأغرب فأن....

تدخلت أم الشعور بالدعابة :

ـ لا ، على مهلك ، لا أستطيع أن أجهّز أربع عرائس دفعة واحدة ، واحدة فقط فى كل مرة !

مصرية مثلنا أم الشعور هذه ، بل مصرية قديمة أيضًا ، أعجبتنى الدعابة لكنى انتبهتُ فجأة :

ـ أمن أجل هذا كنتِ تفسدين الخِطبات ؟

ـ عروس واحدة فى كل سنة ، لا أريد أكثر .

ـ وتريدين الزيجة فى باخرة على النيل ..

تجيب بإيماءة : «بين-بين» ، فأُكمل :

ـ وتضبطينها على يوم وفاء النيل ..

ـ لا أتدخل .

تقولها باقتضاب ، ثم تسترسل :

ـ هى بنفسها اختارت الزمان والمكان ، هل تعرفين لِمَ ؟ لأن المذنب تكون لديه رغبة التطهر ، والمجرم يحوم حول مكان الجريمة . وكل ما فعلتُه أن انتظرت ... انتظرتُ بلَهَف ، انتظرتُ بصبرِ مثل أى أم ، انتظرتُ عشرة سنوات كاملة حتّى أُلبِس ابنتى الطرحة ، وأكتب كتابها بدمائها ، وأزفّها إلى عريسها ، انتظرتُ أن أبخَرها وأرقص لها وأفرح بها ، ثم هأنذا أنتظر بفارغ التَوْق انتصاف الليل .

تستدرك مداعبة :

ـ والآن على أن أسرع ؛ فأمُكن مثل سندريللا عجوز ، لا تستطيع أن تبقى بعد منتصف الليل .

* * *

١٨

عن عقوق الأم الذى يُدخل جهنم

نهضت أم الشعور ، رفعت ذراعيها عالياً ، باسطة الكفين إلى الجانبين ، أغمضت عينيها وبدأت التلاوة :

«ليكن قلبك فى صدرى ، ليكن إيمانك فى قلبى ، لتكن طاولة القربان فارغة ، ليكن القربان فى قلبك ، يا إله النعم ، ونعمة الآلهة ، ليكن قلبك فى صدرى ، ليكن إيمانك فى قلبى ، لترشد المهاجرين إلى البر الغربى فى رحلة الخلود ، لا أحد ممن ذهبوا يعود ، لتنقل النازحين من البر الشرقى إلى عمق النور ، لا أحد يغالب أم الشعور» .

تساءلت ما العمل .. أردت أن أهتف بأى كلام لأشوش عليها ، ولكن هل يحتسب هذا كطارد للعنات ، أم جالب للزوال ؟ ثار النيل وماج ، فأخمد أية احتمالية لثورة عندى . ضربت أم الشعور كفيها ونادت :

- عرائس النيل السابقات ، لنبدأ طقوس الزفة الأخيرة !

انفكت شعور العرائس عن أجساد الحضور وتقدمن فى صفين نحو المسرح ، وتقدمت بينهن أم الشعور دون أن تضطر إلى التخلى عن صيدتها ، استطالت ضفيرتها فى مرونة تسمح لها بأن تجوب القاعة وتحتفظ بالعروس مقيدة فى ذات الوقت . ومع إشارة البدء ، انطلقن فى الرقص .

نظرت إلى ريطال ، كانت منكومة فى تحجب صامت ، فيما تؤدى أم الشعور

الرقصة بتضرع وخشوع ، أدرتُ الاحتمالات فى رأسى ، ماذا لو حررتُ ريفال ثم وجدت الباب لا يزال مغلقًا ، هل نقفز فى النيل حينها ؟ حسنًا ولكن سأجعلها تقفز أولاً؛ فأم الشعور قالت أن أول من يقفز سيكون الأضحية . مهلاً ، لحظة ، ياللذكاء ! إذا كنتِ ستهبينها للنيل بالنهاية ، فلِم لا تدعينهن يلقينها بمعرفتهن ؟

لكن أم الشعور لا تضيع وقتها مثلى فى مصمصة الشفاه ، تقدمَتْ من ريفال وتوقفَتْ بمواجهتها ، ومن خلفها تقيمها إحدى العرائس وتسندها إلى صدرها ، وقعَتْ ريفال بين طرفى الكمَاشة غير قادرة على الحركة أو النطق أو يطرف لها حتّى جفن ، تتناول أم الشعور قلادة على شكل جعران من معاونتها ، وتطوّق به عنق ريفال الواجمة .

وكأن قوة الحياة التى بالجعران دبّت بـ (ريفال) أفاقتها من ذهولها ، بدأت ترتجف ، ترتعش ، تهتز بين آسرتيها بقوّة ، ثم صرخت حتى بصقت أحبالها الصوتية ، أما صوتها الذى بُحَّ من كثرة الصراخ فقد استطعت تمييز بعض الكلمات من خلاله :

ـ « النجدة .. أنا صديقتكن .. افعلن شيئًا ، إكرامًا للصداقة ، إكرامًا للصحبة الحلوة ، انجدننى ... انجدننى .. » .

ثم استدارت وصاحت بصوتٍ مثل الناى الحزين :

ـ فارس !

بث صوتها الحميّة فى قلبى ، قبل أن يُقطّع الناى قلبى ، صديقتنا تستنجد بنا ، إكرامًا للبراءة والطفولة والأيام الخوالى ، لوت آسيا عنقها وقالت :

ـ ليس من شأننا .

وقالت نادية :

ـ أخشى لو لم نساعدها لطاردتنا كما طاردتنا أحلام لبقية أعمارنا !

أيدتها ماهى :

ـ لم نقدر على واحدة ، فكيف باثنتين !

وبرغم العَجْز ، غزانى الشعور بأننى أستطيع أن أفعل شيئًا ، هذه لحظة يعرفها كل المغامرين ، لحظة المخاطرة ، إمّا أصعد القمة بطلاً أو أموت عند السفح ، إمّا أعبر المحيط عوْمًا أو تأكلنى أسماك القرش ، إمّا نأخذ ريفال ونفر أو نوفّر لأم الشعور إمدادات عرائس الأعوام القادمة ، النجاح سيكون أسطوريًا والفشل لن يمكن تداركه ، لا أفكر كثيرًا ، لا يفكّر المغامرون ، وهذه عبارة أهديها إلى أم الشعور : فإمّا صابت أو اثنان عور !

هببتُ واقفة ، وإن لم أملك خطّة أو ألوى على شىء ، أدارت أم الشعور رأسها نحوى ، وقالت بحدّة :

ـ ابقِ أنتِ بعيدة ، كما كنتِ دومًا ، ولا تتدخلى !

تجمّدتُ فى موضعى ، موقف سخيف لا يناسب مقدمة «المغامرين»

الطويلة ، فيما تدفع أم الشعور ريفال أمامها إلى حافة السور ، ومن خلفها العرائس يؤدين الشعائر ، ولا يزال الناى الحزين يعتصر قلبى :

ـ فارس ...

نقّل فارس نظره بين المقص على الطاولة ، وبين الضفيرة الطويلة ، وفى اللحظة الأخيرة ، قفز ينتزع المقص ويجز به شعرات الضفيرة ، لكن الشعرات جدًا سميكة . صرخت أم الشعور صرخة عظيمة ، انفتلت شعرات ثلاث :

أرفع من الشعرة وأحد من السيف ،

أرفع من الشعرة وأشد من الفولاذ ،

أرفع من الشعرة وأوجع من السوْط !

تنسل الضفيرة خصلة خصلة ، شعرة شعرة ، تنتفش لتملأ سماء القاعة . تتحول أم الشعور إلى غولة قبيحة ، تنمو لها أظفار طويلة ، هذه هى ، هذه ما كُتِب عنها وعُرِفَت به ، وقد حاولَتْ أن تهذّبه طوال الوقت فى ضفيرة طويلة .

يتألم فارس من ضربات السياط من ثلاث شعرات ، مقيَّدا بشعور جلاّديه من عرائس النيل السابقات اللاتى انسحبن من الشعائر وتفرغن له .

ينتصب الشعر المتناثر على الموائد ، يتراشق مصوّبًا على العيون والقلوب ، نرفع أذرعنا نحمى وجوهنا ، قبل أن نحتمى بالموائد ، فيما يغلى

الماء بالكئوس أعلى الموائد ، ويتساقط حممًا مغلية ، تذيب المفارش وتفتت الأخشاب والأعصاب والمعادن ، وتقطر فوق رءوسنا .

تختلط صرخاتنا مع تأوهات فارس مع صيحات أم الشعور التى لم تكف تردد :

ـ لا أحد يغالب أم الشعور ، لا أحد يغالب أم الشعور ، لا أحد يأخذها منّى بعدما استحققتها وكتبتُ كتابها على عريسها بدمائها ، لا أحد يمنعها عنّى ، الوقت يمر ، الوقت يمر !!

تُدَحرِج ريفال أمامها بعسر ، فيما بدا أن البكرة لا تريد أن تكر ، يصيح الفتى الممسوس ، وقد التمعت بعينه ومضة :

ـ طلّقها ... طلّقها .... ..

يشيد المأذون بالفكرة :

ـ يا بن الجنّية !

تتوقف أم الشعور عن الصياح ، يتوقف فارس عن التألم ، وربما تتوقف الجروح عن الإيلام ، تخرج أربعة أرؤس مشعثة ورأس خالية من تحت الطاولة ، تشرئب الأعناق الباقية متيقّظة ، وتتلاقى كل العيون على شفاه فارس الذى يصيح :

ـ أنتِ طالق ! طالق ! طالق !

فيما بدا أنها رصاصة الرحمة التى لم تحلم بها ريفال ، ولأول مرة تنبسط الشعيرات أعلى شفاهها فى ابتسامة ، يجن جنون أم الشعور وتتلاطم شعورها فى الهواء ، تقذف بريفال إلى بعيد وتتجه إلى الفتى الممسوس ، يتنعر وجهها غيظًا ، يتجعد وجهه غضبًا ، تعض شفتها متوعدةً ، تتحسر شفاهه منذرًا ، تلتمع حدقة عينها بالحمرة ، يمتلئ بياض عينه دمًا ، فيما يبدو أن الذى عليه قد حضر ، ثم اشتبكا فى صراع من خارج العالم ، من استديوهاتنا مباشرة ، لقاء الجبابرة ، جنٌ يصارع جنيّة ..

لكنّه صراع غير متكافئ ، الجن الوليد ذو الثلاثمائة عام لن يتغلب على جدّته ذات السبعة آلاف سنة ، ولكنه يمنحنا بعض الوقت ، ولا مانع من أن أسدى بعض العون .

ركضتُ إلى الكعكة فاستخلصتُ السكّين وخلّلتُ طريقى بين شعور أم الشعور حتى غرسته فى ظهرها ، انتزعتُه بيسر ، قد لا يؤتى مفعولاً ولكنّه يمنحنا بعض الوقت ...

الوقت !

تهتز الساعة الرملية فوق الطاولة وترتجف بعنف .. لم يبقَ بها إلاّ بضع رملات ، كل رملة لها وقع يُرجِف ، يعصف ، يجرف مثل زلزال أو إعصار أو فيضان ..

قطرة ، قطرتان ، ثلاثة ..

تصلّبت أم الشعور فى مكانها ، تخلّت عن صراعها ، خفّت إلى عروسها ، تمسكها بين ذراعيها وتصيح :

ـ أريد هذه ، لا أريد غيرها ، دعوها لى ولن أؤذيكن ، دعوها ولن أعود لكنّ ...

ثم التفتت إلى فارس ، وصاحت صيحة مجلجلة :

ـ ردَها ... ردَها ...

أربعة ، خمسة ، ستّة ..

لابد أن الرفيقات فكّرن بهذا العرض : عرضًا مغريًا بما فيه الكفاية ، همًا ينزاح وصفحة تنطوى ، ثم نتزوج وننجب ونحكى لأولادنا الحكاية ، حكاية الإنسيات اللاتى تغلبن على الجنيّة ذات الشعور الطويلة .

سبعة ، ثمانية ، تسعة ..

أما أنا فكنتُ أفكّر بحكاية أخرى ، حكاية السندريللا العجوز التى تفقد سحرها بعد منتصف الليل ، ألم تقل إن دقيقة بعد منتصف الليل ولن يكن هناك نفعًا لأى جهد ؟

تسقط الرملة الأخيرة ، وتنفجر الساعة ، فتضربنا كوارث كنتُ استلهمتُها فى الوصف : زلازل وفيضانات وأعاصير ومشاهد ذكّرتنى بيوم الساعة . وكما السمك لا يبتعد عن الماء ، قفزت عرائس النيل عائدات إلى النهر ، وتهالكت أم الشعور على الأرض تنده عنها حشرجات ألم وخيبة ، وتتكوم

شعورها إلى جوارها فى استكانة ، ارتمت ريفال بأحضان فارس ، وركضت وردة نحو الباب تختبره .

نظرتْ إلى السيدة المتكوّمة فى إشفاق ، مثل محارب مهزوم ، أو ملك مخلوع ، أو وحش منكسر .. استندَتْ ماهينار إلى كتفى وقالت :

ـ سوف أحتفظ بها فى قفص ، وأسمح برؤيتها لكل من يدفع جنيهًا !

وأشعلَتْ آسيا سيجارة :

ـ هكذا هو العجل حين يسقط تكثر سكاكينه ، ألم أخبركن بأنى أكره السقوط !

ضربت وردة بكلتا ذراعيها الباب فى يأس :

ـ لا فائدة .

سألتها نادية فى عجب :

ـ ماذا ! ألايزال مغلقًا !

اندفع الجميع تجاه الباب يحاولون فتحه ، وبقيتُ أتأمل أم الشعور ، لاتزال تلهث ورأسها لأسفل ، ندت عنها زفرة أو نفثة هواء ، أتبعتها بضحكة عالية ، كانت آخر ما توقعتُ أن أسمعه منها فى هذا الموقف ، لو صرخَتْ أو انتحبَتْ لكان أقرب للمنطق .

التفت الجميع إلى ضحكاتها ، وبعد وهلة ، توقف الرنين ، وقالت دون ان ترفع رأسها :

ـ حسنًا ، وإن قدرتن على أنا ، فماذا تفعلن فى حابى ؟

ثار النيل ثورة هائلة ، نظرتُ من الحافة فلم أرَ السماء ، كانت الأمواج تغطينا حتّى السماء ، ثم انكسرت عند أقدامنا ..

الوحش لم يزل جائعًا ، وكل هذا الذى وقع لا يغنيه عن تناول الطعام، المنسوب يعلو داخل القاعة ، ونادية أكثر من يرتبك ، أكثر من ينفعل ، يؤزّ شعرها ويتقاذف الشحنات فيما بينه من خصلة إلى أخرى ، لو أستطلع المستقبل لقلتُ : كلنا سنغرق ، وهى ستتحول إلى أم شعور جديدة .

أما عن الوقت الحاضر ، فإن الوحش لم يأكل ، وهو لا يأنف أن يأكل أول طعام يُقدّم إليه ، ألم تخبرنا أم الشعور بأن حابى الكريم سوف يقبل بأول أضحية ؟

نتبادل النظرات فيما بيننا ، نومئ برءوسنا ، نشبك أيادينا ونتقدم نحو أم الشعور ، رذاذ الأمواج يطال شعر نادية ، تنتفش شعورها وتسبقنا نحو الهدف ، تتوقف وردة عن التقدم ، وتصرخ فجأة :

ـ الخنفساء !

ـ ماذا ؟

ـ الجعران الفرعونى ! ألبسوها الجعران !

تخلع ريفال القلادة عن عنقها ، ونتكاتف جميعًا لحشرها بعنق الجنّية ، تصارعنا شعورها باستماتة ، لكن الكثرة تغلب الشجاعة ، نعدّ معًا :

واحد ..

اثنان ...

ثلاثة !

ثم هوووووب !

نلقى بها فى « حابى » ، مهللين بصيحات السعادة !

انغمسنا فى السعادة ــ كما فى الماء ــ للركب .. وأفقنا من السكرة فلا النيل سكن ولا الباب انفتح ، ومالت السفينة قليلاً للأسفل .. ركضنا نلوذ بأعلى بقعة .. كيف هذا .. ما السبب ؟

ــ لم تنفع كقربان ، كان يجب أن نعرف أنها لا تصلح كقربان ، أنا نفسى لم أكن لأقبل بها !

ــ والعمل الآن ، ما العمل الآن ، كيف سنخرج من هنا ، أمى ستقتلنى لو لم أعد للبيت حالاً !

تنظر إلينا آسيا وتشير لوردة بطرف عينها :

ــ لتخبرها إحداكن إنها إن لم تصمت سأقتلها أنا بنفسى .

ــ لانزال لا نعرف كيف نتصرف .. ماذا نعمل الآن ، إننا نغرق !

ـ إنه أمر بديهى .. إنه أمر منطقى .. لو أنها فزورة لقلت ....

تقاطع نادية ماهينار بعصبية :

ـ انطقى سريعًا ، سنغرق قبل أن تكتمل فوازيرك هذه .

ـ أقول بأن علينا أن نتخير من بيننا قربانًا .

كان يمكن أن يستغرق الاتفاق وقتًا طويلاً ، على الأقل كان ليستغرق بعض الوقت ، أما وقد وصل الماء للصدر ، ولقصيرات القامة للعنق ، فإنهن فى ثانية قد اتفقن بالإجماع على الأضحية ، وكما شاركتهن ريفال فى إلقاء أم الشعور ، فإننى وإخوتى على ريفال ، وأنا وريفال على أم الشعور . لابد أنهن يقلن لأنفهسن نحن حاولنا ما علينا ، ولكنّ هذا ما كان مُقدّرًا منذ البدء ، وليس لغرورنا أن يغيّر القدر . تقدمن منها ، احتمت بعريسها (طليقها) ، أيًا يكن ..

نقلتُ بصرى بينها وبين باب القاعة ، وقبل أن يتفاقم الأمر ويصبح من المستحيل تداركه صرخت :

ـ انتظرن ، لا تلقين بها ، أنا عندى الحل ، عندى الحل !

التفتن إلى فى آخر ثانية ، شققتُ طريقى إلى باب القاعة ، حملتُ الدمية ذات ملامح ريفال من مدخل القاعة ، ورفعتها بين يدى عاليًا وأنا أهتف بريفال :

ـ اقطعى خصلة من شعرك ، امنحينى خصلة من شعرك ، بسرعة بسرعة ..

كان هذا أسهل شىء بالنسبة لها ، هذا ما تفعله طوال الوقت ، جذبتُ شريطة من رأسى وربطتُ بها الشعر إلى الدمية ، ثم وقفتُ أنظم بعضًا من الكلمات الكبيرة وفق ما تذكرتُ بسرعة :

« أيا حابى العظيم ، يا بحر النيل الكريم ، أنت فى قلبى ، وقلبى فى قلبك ومصر هبة النيل ، اقبل قرباننا الجميل ، ولتهدأ أمواجك الثائرة ، ولتكن مائدة القربان فارغة ، يا حابى » .

ثم ألقيتُ بها فى النيل ، ووقفتُ ألهث فى انتظار النتيجة .. سوف تنجح سوف تنطلى الحيلة كما انطلت فى عهد عمرو بن العاص .. ستنجح ستنجح .

* * *

١٩

عن الحياة المقرفة التى نعشقها

يمر أمامي فارس في حُلة عرسه ، تمسك بأنامله أحلام ، في الثوب الأبيض والطرحة ، ويمدَّان إلى بعيد ، فهما تتكئ العروس على ذراعي أبويها ، يتكئون على بعضهم البعض فهما يبتعدون . أنا لستُ رجلاً ، لا أعرف كيف يفكر الرجال ولكن ، لم أكن لأحب أن أتزوج بفتاة تعلق على أنها بلحية .

من خلف ظهري يستوقفني النداء :

- آنسة ليلى !

التفت فإذا به الفتى الممسوس ، يبادرني :

- أنتِ شجاعة جدًا .

- لم أفعل شيئًا ، البركة بك .

- بل وذكية أيضًا ، أو قولي عبقرية ..

أطالعه في حياء :

- أشكرك ، ولكن أنت تبالغ قليلًا .....

يطالعني بحماس :

- هل تسمحين أن تمنحيني رقمك ؟

رقمى ! تغرغر الكلمة فى حلقى ، ثم أتحدث ببطء كسبًا للوقت بينما أتلفت خلفى :

ـ سأخبرك الآن حالاً رقمى ..

ألمح نادية قادمة ، ومن خلفها البنات ، فأصيح بينما أركض نحوهن :

ـ نادية ! يا بنات ! أين كنتن ! لا تتركننى وحدى ...

ـ كنّا نجلب الهواتف ، ونطمئن أسرنا .

ثم تناولنى هاتفى ، تقترب ماهى تتأبط ذراع وردة ، وقد بدا أنه نشأت بينهما علاقة تكافلية تقوم على المنفعة المتبادلة مثل علاقة التمساح بالطائر الذى ينظّف أسنانه ، أو القرش بسمكة التنظيف ، أنا سأخلّصك مما لا ترغب به ، وأنت امنحنى طعامى ، والكل سعداء .

حقًا ، الكل سعداء ، آسيا تتحدث فى الهاتف بصوتها الحلو الأجش ، والسماء فوقنا ، والأرض تحت أقدامنا ، نتوقف عن السير ، نضرب أكفّنا ونرسل الضحكات :

ـ نحن فعلناها يا بنات !

ـ نحن أحياء وسالمات ..

ـ شلّة العاوّ القادم قادمات !!

وتسخر منى ماهى :

ـ هل تعرفن أفضل مقطع كان متى ؟ حين قالت ليلى : « أيا حابى العظيم ، أقسمتُ عليكَ أن تأخذها ، واللهِ لا تُرجِعها ! » .

أيدتها آسيا :

ـ أنا أيضًا كنتُ أكتم ضحكاتى خشية أن أفسد تعويذتها .

قلتُ لهن :

ـ حسنًا ، اسخرن كما تشأن ، أحمد الله أن خطرت لى تلك الفكرة وأنا أصلاً أكره النيل وأخشاه من دون سبب .

نظرَتْ إلى وردة مميلةً رأسها :

ـ تكرهينه ! كنتِ تنافقينه منذ قليل : « أنت فى قلبى ، وقلبى فى قلبك » .. بذمتك هل هناك أى شىء ذى معنى فى : « قلبى فى قلبك » ؟

ـ هذا يدل على أننى لستُ منافقة جيدة . وبالمناسبة : لا داعى لأن تشكرننى على إنقاذكن ، هذا واجبى .

قالت نادية :

ـ صدقًا يا ليلى ، لكِ الشكر ، أنا ظننت أننا لن نخرج أبدًا أحياء ، هل تعرفن متى كانت اللحظة الأسوأ ؟ كان ذلك بعد أن ألقينا بأم الشعور فى النيل ، ثم تحوّلنا لنلقى ريفال ، وكأننا تخلصنا من الوحش الذى يهددنا ،

فتحرر الوحش الذى بداخلنا متعطشًا للدماء .. أقول بأننى كنتُ مستعدة فعلاً لرمى ريفال ، بل ومتحمسة كذلك ، وليس فقط أننى مضطرة .

أيدها الفتيات :

ـ نعم ، مرّ بى هذا الإحساس .

ـ هى تستحق الإلقاء عشر مرات على أى حال !

وأخبرهن :

ـ أما أنا فكانت لحظتى الأسوأ ، لحظة إنتصاف الليل ، وتهاوى أم الشعور من دون حيلة ، لا أحب لحظة سقوط الجابرة ، لحظة تشعرنى بعدم الأمان .

احتدّت ماهى :

ـ غريب أمرك يا ليلى ، لماذا تدافعين عنها ؟!

أهزّ كتفى :

ـ ولماذا أدافع عنها ، هل كانت من بقية أهلى ؟ .. إنها مجرد خاطرة !

وأثرت وردة معلومات شريكتها :

ـ أنتِ لم تسمعيها يا ماهى حين أبدت إعجابها بأم الشعور وقالت عنها فنّانة ، كنتِ بالحمّام حينها !

أبتسم بثقة :

ـ ماذا تقلن يا رفيقات ؟ لقد خلّصتكن منها !

يرن هاتفى ، أنظر إلى الاسم على الشاشة ويتواثب قلبى مثل فرقع لوز :

ـ سامى ، كيفك ، لن تصدّق ما حدث معى ، سأحكى لك كل شىء ، أنا الآن فى الطريق ... .

أنهيتُ المكالمة ، وتطلعتُ إلى الأربعة الوجوه أمامى ، كنّ منزعجات ومتحفزات بشكل لا أفهمه ، سألتنى ماهينار :

ـ وسامى هذا هو ... ؟

ـ خطيبى .

ـ خطيبكِ ؟ وهل لديكِ خطيب أيضًا !

انتفشت شعور الفتيات ، وسُنّت أطرافها ، والتففن حولى فى دائرة بينما آسيا تقول :

ـ يبدو أن الدوّامة التى كنّا بها أنستنا أن ننتبه لحكايتك !

قلتُ بنبرة أردتُ لها أن تكون مرحة لكنها خرجت مرتعشة قليلاً :

ـ ما لكنّ يا بنات ! وما حكايتى !

ـ أنتِ الوحيدة التى لم تحكِ حكاية ، أنتِ الوحيدة التى احتفظتْ بخطيبها للنهاية ، أنتِ التى حرّضتنا على ترك الهواتف ، أحضرتِنا على وجوهنا لأم الشعور التى أرعبتنا ودمّرت حيواتنا ثم أنتِ تدافعين عنها وتقولين حزنتِ لسقوطها ، لماذا دعوتنا إلى الحفل نيابة عن ريفال التى لا تعرف شيئًا عن هذه الدعوة ؟

ـ كان حلمًا ، صدّقننى ، ألهِمت موعد الحفل والرغبة بدعوتكن فى حلم ، ثم حدّثتْ نادية وقمت بعدة محاولات للحصول على بقية الأرقام ، كان حافزًا خفيًا كالحافز الذى جعلنا نلتقى بالكوافير بدون ترتيب مسبق !

ـ هذا كلام لا يُصدَّق !

تبعثر وردة خصلات شعرى بين يديها :

ـ ثم إن شعرك بخير ، لا يبدو أنه يخنقكِ ليلاً ولا يجزّ عنقك .

وحدّقت نادية بعينى :

ـ أشعر أن الوحش بداخلى انتفض مسعورًا للدماء أكثر ، قولى لنا لماذا لم يحدث لكِ مثلنا ، ألم نكن معًا خطوة بخطوة ؟

أذبُ بعض الشعور عن وجهى ، وأصيح :

ـ لا ، لا يا بنات ، لا .. لم نكن معًا خطوة بخطوة ، أنا لم أفعل مثلكن ، أنـ كل جريمتى أننى وقفتُ صامتة ، لم أدافع عنها ، غير أنى فى النهاية ركضتُ

خلف آسيا ، وصارعتها من أجل أن أستعيد حجاب أحلام وأعيده لها ، هل تذكرين يا آسيا ، أرجوكِ أن تتذكرى ، أم الشعور نفسها رَوت الحكاية ، كما قالت لى أن أبقى بعيدة كما كنتُ دومًا ، ألم تلحظن هذا ؟ وحين عدتُ إلى أحلام بالحجاب كان لم يعد له قيمة بالنسبة لها ، لكنها منحتنى نظرة امتنان ، هذه النظرة لا أنساها ، ويبدو أنها أيضًا لم تنسها وألهمتنى النجاة إكرامًا لها ، لا تعتقدن أنى لم أعانىّ مثلكن ، لا تعتقدن بأنى لم أتعذب أكثر منكن ، لو رغبتن بأن أحكى لكن سأحكى لكن ، فهل أحكى لكن ؟

* * *

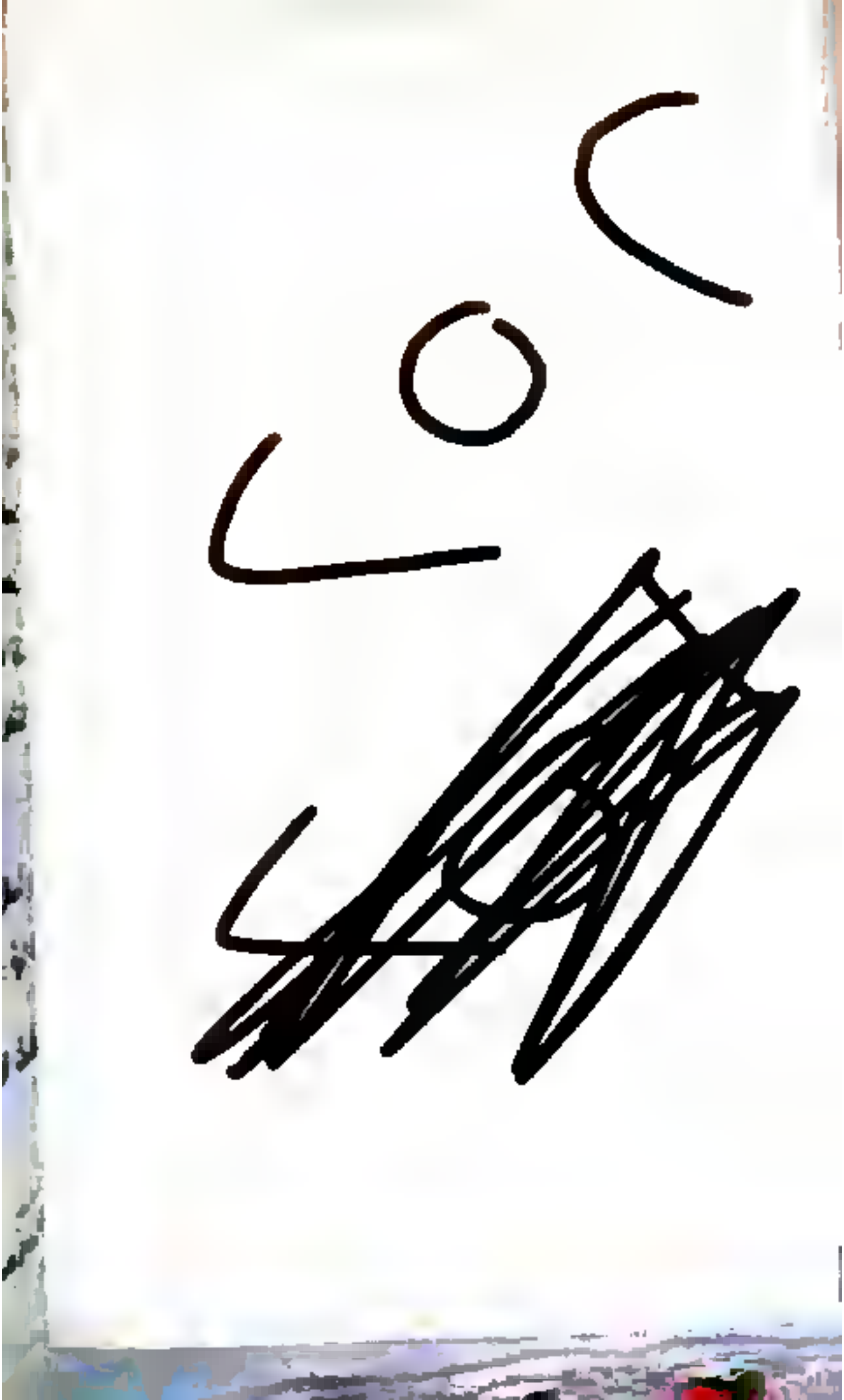

٢٠

عن القاتلة التى لم تقتل أحدًا

تلك الفترة من حياتى كنت ممزقة ما بين الهلاوس والأوهام والأحلام ، لم أكن أعرف شيئًا عن الحقيقة .

رأيت نفسى بقمة التل ، تتدلى ساقاى الطفلتان ترفرفان بالهواء ، وعلى وتدى الأيسر ترقد ضفيرة طويلة ، أزيح الشريط بأسفل منها ، أهبه للريح ، أزج فرجة بين نسيجها ، أفك عراها عقدة بعد عقدة ، خصلة بعد خصلة ، من أسفل إلى أعلى ، حتى يتحرر شعرى ويرقد كثيفًا فوق صدرى ، يعلو ويهبط حين أتخذ نفسًا عميقًا ، ثم أعود أغزله فى ضفيرة جديدة ، أشد رتالها عقدة بعد عقدة ، خصلة بعد خصلة ، من فوق إلى أدنى ، ترد لى الريح الشريطة ، أعقد لها بالشريطة ، أحرر الضفيرة ، أعقد الضفيرة ، أفك الضفيرة ، أجدل الضفيرة ، أفسخ الضفيرة ، أفتل الضفيرة ، أنكش الضفيرة ، أبرم الضفيرة ..

ينظر لى سيزيف(*) من أسفل التل ، يضرب كفيه ببعضهما ويهز رأسه ، بل أتلى عكوى الآية القرآنية :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ... ﴾[٢]

• • •

(*) بطل إغريقي عاقبته الآلهة بأن يحمل صخرة يصعد بها الجبل ثم تتدحرج فيعاود حملها وصعوده العقاب اللانهائي .

(٢) سورة النحل ، آية 92 .

تخبرنى أختى أن سامى بالصالون ، أرتدى ملابسى وأذهب لمقابلته على عجل ، لكنه يحبطنى بتعليق عن شعرى المشعث ، وقد نسيتُ أن أمشطه ، فاستأذنتُ لحظة ، إنه طويل ومُلبَّد من أثر النوم وتمشيطه ليس بالعملية السهلة ، لكنى اقتصدتُ فى الوقت بقدر ما أستطيع وحين عدتُ استقبلنى سامى بدهشة :

ـ هل قصصتِ شعركِ ؟

تلمستُ شعرى القصير بارتباك ، لم أدرِ ما أقول غير عبارة :

ـ ما رأيك ؟

لوى عنقه إلى الجانب الآخر :

ـ كنتُ أفضّل لو تسألينى قبل القصّ .

ـ لا تقلق ، إنّه يطول سريعًا ، أخبرنى عن أحوالك ..

ـ حسنًا ، ولكن أتشوق لفنجان من القهوة أولًا ..

ـ حالاً ..

أعددتُ القهوة وعدتُ بسرعة ، ففغر فاه سائلًا :

ـ هل تحممتِ ؟

يا له من سؤال غير لائق ! وهل رائحتى سيئة إلى هذا الحد ! لكنه أشار

إلى شعرى ، فسقطت قطرة من الماء على كتفى ، تلمستُ الخصلات المبتلة فى قلق ، وعدتُ أقول متمثلةً المرح :

ـ أنت قوى الملاحظة .

ـ ليس إلى هذا الحد ، ولكنكِ سريعة جدًا لتتحممى وتعدّى قهوة فى ثلاث دقائق !

ـ ما رأيك ! ست بيت شاطرة ..

ـ مهلاً ، لقد قلتُ قهوة ، وليس محشى مثلًا ..

ـ إذًا أدعوك لتناول المحشى الأسبوع القادم ..

ـ أعتبر هذا وعدًا ؟

أومأتُ برأسى ، ثم قمتُ ألبّى نداء أمى لإعداد المائدة ، وعدتُ أتقدّم سامى للطعام ، ولكنى التفتتُ على إثر صرخة عالية ، والتمت أسرتى . أشار سامى إلى رأسى وقال :

ـ شعرك !

نظر الجميع إلى حيث يشير متسائلين :

ـ ما له شعرها ؟

وضعتُ يدى على رأسى أتبيّن الأمر ، كان شعرى قد جف ، دارت عينى دورة كاملة ريثما أفكر فى الحجة ، ثم قلت :

ـ سيشوار ، استخدمتُ السيشوار .

ـ لكنه أيضًا استطال !!

جلبتُ شعرى أمامى ، كان فعلًا بالطول الذى عهدته ، قالت أمى فى عجب :

ـ سلامتك يا بنى ، إن شعرها كما هو ..

وقلتُ أنا بنبرة مرتبكة :

ـ ألم أقل لك إنه يطول سريعًا !

وازَن سامى الأمر فى رأسه ، ثم ألقى بجسده على الأريكة ضاحكًا :

ـ إنها خدعة .. هذا مقلب هاه ! ترتدين الباروكة !

اتسعت ابتسامتى فى راحة :

ـ نعم ، نعم ، باروكة ، إننى أحب الشعر المستعار ، ومنذ الآن فصاعدًا لا تعجب لأى منظر ترى شعرى به مجددًا ، اتفقنا !

وبقى هو يردد وهو لا يزال يضحك :

ـ لقد نلتِ منى ، أرعبتنى من الأعماق ، ولكن سأردّها لكِ يا ليلى !

مرّ هذا الأمر على خير ، واعتبرناها دعابة ظريفة ، حتّى أفراد أسرتى الذين لم يفهموا شيئًا ضحكوا ، لكن ما تلا ذلك لم يكن ظريفًا على الإطلاق .

* * *

حلمتُ أنى أجلس بجانبى على أريكة عالية من أرائك الزمن القديم بمنزل جدّتى ، ومن خلفى تقف جدّتى تستند بإحدى ساقيها إلى الأريكة وبالساق الأخرى إلى الأرض ، وبمنتصف الغرفة قصعة فوق طبلية يحترق بها البخور، وعلى الأرض بمقابلنا يجلس الشيطان فى جلباب أبيض يدخّن الشيشة . بدا الحلم حقيقيًا حتى إنى شممتُ دخان الشيشة متزجًا بالبخور !

تناولَتْ ستّى شعرى وراحت تعقده خصلة بعد خصلة ، وكلما عقدت عقدة نفثت فيها وقالت :

- ﴿ ومن شر النفّاثات فى العقد * ومن شر حاسد إذا حسد ﴾(*) .

أقول لها بشرود :

- هل تعرفين يا ستّى ، يقولون إن الشيطانة أم الشعور تمتلك ضفيرة طويلة .. لا يُرى لها أول من آخر .

تتدلى ضفيرة بيضاء طويلة من شعر ستّى وتقول :

- مثل هذه ؟

يسعل الشيطان ويعتدل فى جلسته ، فيكشف جلبابه ثانيًا ساق عنزة رمّيمًا عليها الأخرى بزاوية قائمة .

* * *

(*) سورة الفلق ، الآيتان : 5 ، 4 .

فى المرة التالية التى زارنا فيها سامى أحضر معه علبة ملتفة بأوراق الهدايا ، ومع استحالة فتحها باليد المجردة اتجهت لاستخدام مقص ، ويبدو أن المقص قد أوحى لسامى بأفكار مُلهِمة ، فأزاح العلبة جانبًا وقال :

ـ ما رأيك بهدية أحسن وأعمق أثرًا من أى شىء قد يكون بهذه العلبة ..

قلتُ مداعبةً :

ـ ليس إذا كان بها خاتمًا من الألماس .

عبس فى وجهى :

ـ أنا لا أمزح .

ـ لا عليكَ ، أنا أصلًا توقعتُ أن بالعلبة عفريت العلبة لا أكثر ، فقل لى ما الذى أفضل مما بها ؟

نظر بعمق عينى وقال :

ـ سأمنحكِ تذكارًا من جسدى ، شيئًا يدوم بعد أن أقضى وأفنى .

وقع فى قلبى :

ـ شيئًا مثل ماذا ؟

التقط المقص وقام بجز شعيرات من أسفل رأسه ، وحملها بقبضته ثم بسطها أمامى ، تقبلتها واحتفظتُ بها فى منديل ، وعينى على العلبة :

ـ وهل سأحصل على العلبة أيضًا ، أم نكتفى بالتذكار الجسدى ؟

لكنه قال بجدّية :

ـ والآن بعدما حصلتِ على تذكارى ، ألن تمنحينى تذكارًا منكِ ؟

ـ ألا ترى أن هذا طفوليًا بعض الشىء ؟

فى هذه اللحظة رأيتُ وجهًا آخر غير الذى اعتدته :

ـ طفوليًا ! ؟ لقد جززتَ لكِ حالًا بعضًا من جسدى ثم تقولين : طفوليًا !! ؟

ابتلعتُ ريقى :

ـ حسنًا ، لا تغضب .

تناولتُ المقص وهممتُ بجز أطراف شعرى ، لكنه أوقفنى بإشارة من يده ، وحدجنى بنظرة أرعبتنى :

ـ ومن قال إنى أريد خصلة شعر ؟

ـ فما الذى تريده ؟

جرت عينه على أرنبة أنفى ، شحمة أذنى ، أطراف أصابعى فى نظرات مسعورة ثم قال :

ـ سأترك هذا لخيالك ...

التقت عيناننا للحظة ، وفى اللحظة التالية انقضّ يخطف المقص من يدى ،

فقفزتُ عن المقعد وركضتُ أهرب منه بالشقة فيتبعنى ، وقبل أن ينجدنى أحد كان قد جثم فوقى وتناول أصابعى ، وقرّب منها المقص ، أغمضتُ عينى ورحتُ أصرخ بهيستيريا ، قبل أن أسمع صوت انغلاق المقص !

فتحتُ عينى وطوَحتُ بقدمى فى الهواء دون أن أتوقف عن الصراخ والجيران قد انهالوا طرقًا على الباب ، قام عنّى فنظرتُ إلى أصابعى ، وبدأتُ العدّ : كانوا مكتملى العدد ، لا ينقصهم سوى ظفر ، وكان سامى ملقَى على قذاله من الضحك ، وأمى تحاول أن تنجو من نوبة قلبية ، يحاوطها إخوتى ، وحين استطاع سامى التحدث أخيرًا قال :

ـ هذه بتلك .

* * *

رأيتُ فيما يرى النائم أن طيرًا يهبط من السماء ، ويحطُّ على شجرة مجاورة ، أردتُ أن أرفع رأسى أتابعه ، ولكنها كانت متصلبة وكأن على رأسى الطير ، أرسلتُ عينى لأعلى فإذا بشعرى متفرعًا ومتشعبًا مثل أغصان شجرة ، أرسلتُ عينى لأسفل فإذا بجسدى منحوتًا من الخشب ، وأقدامى مغروسة بالتربة .. سقطت عنّى ثمرة ، حفّزتنى على تتبع ثمارى ، فإذا بها كأنها رءوس الشياطين .

تلفّتُ حولى كانت الغابة تعج بالأشجار والأطيار والرحالة والمغامرين . جلس حطّاب يتناول غداءه أسفل شجرة قريبة ، وحط كروان على غصن مجاور مطلقًا صيحته التى أثارت حنينى :

« الملك لك لك يا صاحب الملك » ..

ناديته ، وبسطتُ خصلةً من شعرى أن يقبل صحبتى ويشجى حنينى ، لكنه رفَ بجناحيه وابتعد . دنت صحبة من المُخيَمين بالغابة ، بسطتُ لهم ظلى أن يَرضَوا رفقتى ويؤنسوا وحشتى ، لكنهم انزووا ، أما الحبيبان اللذان لا يستطيعان أن يبعدا أكفَهما عن بعضهما فقد اختارا شجرة أخرى لحفر أساميهما والعهود .. ما بالكم .. لماذا تنبذوننى وتجرحون مشاعرى؟ ألستُ بشجرة مثلهن ؟ ألستُ أربّى الثمار مثلهن ؟ ألا يمكن لرءوس الشياطين هذه أن تكون شهيَة المذاق ؟

فقط حطّوا على شعرى وابنوا أعشاشكم ..

فقط هزّوا شعرى وتناولوا ثماركم ..

فأنا شجرة ،

أنا شجرة مثلهن ،

أنا شجرة بأكثر منهن .

هزّ ندائى أرجاء الغابة ، وردّ على العابرون فى بلادة :

« لا نسمعك » .

فقط أرسل الكروان التحيّة :

« الملك لك لك يا صاحب الملك »

ووحده الحطّاب لبّى النداء ، وفى لحظةٍ ، كان أمامى ، رفع فأسه ، وضرب .

* * *

فى المحاضرة ، كانت يداى أسفل البنش أختلس لقيمات من شطيرة ، وإلى جانبى سامى يبتسم ويقول :

ـ يكفى يا ليلى أنك تدغدغيننى ..

نظرتُ إليه رافعةً طرف فمى ، وعدتُ لالتهام الشطيرة بينما أتابع المحاضرة ؛ فأنا أستوعب بشكل أفضل حين تكون معدتى مطمئنة . لحظات وقال سامى :

ـ واااو ! هذا العطر يدوّخنى ..

ولم تكن علاقتى بالعطر قد تجاوزت الصابون ذا الرائحة هذا الصباح فتلفتُّ حول سامى باحثةً عن أنثى تحاول خطفه منى ، لم تكن هناك سوى الفتاة دودة الكتب والأولى على الدفعة للأعوام السابقة ، هذه لا خوف منها فعدتُ للمحاضرة التى لم أهنأ بها طبعًا فقد قال سامى :

ـ ليس أكثر منّى ، بل أنا أحبك أكثر .

كنتُ أعرف ما الذى شعرى بقادرٍ عليه ، فاكتفيتُ بأن منحته ابتسامة صفراء وأصدرتُ همهمة تأثُّر وقلت :

ـ أنت لطيف جدًا ، ولكن ، هل هذا وقت هذا الكلام ؟

ثم نفضتُ يداى من فتات الخبز ، وأخرجتُ المبراة لصقل قلم الرصاص ، فيما يحدجنى سامى بنظرة من الجنب ويقول :

ـ قولى لنفسك !

أسمع همسات داخل رأسى ، وسوسات من داخل شعرى ، أسدُّ أذنى بأصابعى ، تنسل خصلة وتهبط على كتف سامى وكأنما طيّرها الهواء ، تقترب لأذنه وتهمس :

ـ إنها عاهرة ، تبيع جسدها بالنقود .

أنظر إلى سامى فى فزع ، فيما شعرى يسرّ إليه :

ـ إنها خائنة ، لها فى كل بلد عشيق .

يبادلنى سامى نظرة الفزع ، أتحاشى نظرته وأنكفئ على برى القلم ، وذاك اللعين يوسوس :

ـ إنها قاتلة ، تستخدم أدوات غير تقليدية للقتل ، انظر كيف تعكف على سنّ القلم !

ألقى بالقلم فى فزع ، أزيح شعرى بيدى إلى الخلف ، تقاومنى الخصلة العنيدة فى إصرار ، لا تريد أن تنزاح قبل أن تسمم أفكاره :

ـ إنها تزمع قتلك ، اقتلها قبل أن تقتلك ، اقتلها قبل أن تقتلك ، اقتلها قبل أن تقتلك !!

أجمع حاجياتى مغادرة ، لكن يد سامى تستوقف يدى فوق القلم الرصاص ، ويهمس بشرّ :

ـ ما الذى تزمعين فعله ؟

ـ أنا سمعت ما قاله لك يا سامى ، إنه يكذب .

ـ ومن هو ؟

ـ سأخبرك بكل شىء ، فقط دعنا نخرج من هنا ونتحدث .

دفعنى أمامه ثم أدارنى فور أن أصبحنا فى الخارج وقال :

ـ أنا لا أفهم !

ـ إنه شيطان يا سامى ، إنه شيطانى ، يقولون بأن القرين يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، ولكنّ قرينى يسكن شعرى ، أنا أشعر به يا سامى ، صدّقنى .

يسأل دون اقتناع على سبيل مجاراتى :

ـ ولأى غرض ؟

ـ لكى ينتقم منى ، إنه يريد أن يدمّر حياتى ، يريدك أن تهجرنى أو تقتلنى ، مرة مقص ومرة قلم ، فكيف سينتهى بنا الحال يا سامى ؟

ينظر إلى حينًا ، ثم يقول دون أن يطرف :

ـ هل هذه هى الطريقة ؟

ـ طريقة ماذا ؟

ـ طريقة الهجر ، آخر صيحة لفسخ الخطبة ، اجعليه يظن أنكِ مجنونة ، وسيهرب وحده .

أهز رأسى وأزفر فى أسى :

ـ ليتنى مجنونة يا سامى ، ليت الأمر بهذه بساطة ، لكانت الدنيا أكثر سعادة ، ألا تعلم يا سامى أن الشيطان أكبر همّه أن يفرّق بين الزوجين ؟ هذا أفضل عنده من أن يحض على السرقة أو القتل . خذنى إلى طبيب يا سامى .. علّ الحياة تبتسم لى ، وأطلع مجنونة !

* * *

أتبختر فى ردائى الأحمر فى طريقى إلى منزل جدّتى فى الحلم ، أطرق الباب فتدعونى للدخول ، تطالعنى من فراشها بهيئة متبدلة ، فأسألها مستلسرة :

www waya ga

ـ جدّتى ، لماذا شعوركِ طويلة هكذا ؟

ـ لأحيطكِ بها هكذا .

ـ ولماذا أظافركِ مسنونة جيدًا ؟

ـ لأمسكِ بها جيّدًا .

ـ ولماذا منخراك متسعان كثيرًا ؟

ـ لأشمّك بهما كثيرًا .

ـ ولماذا عيناكِ زرقاوتان كالمحيط ؟

ـ لأغرقكِ فيهما كالمحيط .

ثم انقضّت على وقد تحررت ضفيرة طويلة من أسفل عنقها ، فسألتها :

ـ أوتملكين أيضًا ضفيرة يا جدّتى ؟

قالت لى :

ـ لا تقولى جدّتى ، ادعينى : ماما ، ماما فيفى .

ثم أطبقت على عظامى ، والذئب يشاهد من النافذة ، فلمّا سمع القرقعة استدار مبرطمًا : « لا تحلم بعشاء الليلة » ..

* * *

يطلب الطبيب من سامى أن ينتظر بالخارج ، يحتوى سامى كفى بين كفّيه ويربّت عليها مطمئنًا فيما يودّعنى ، تنسل خصلة وتهمس له بشىء لم أسمعه لكنه بدّل وجهه قبل أن تغلق الممرضة الباب . أراحنى الطبيب على الشيزلونج ، واتخذ مقعدًا جوارى ، ثم أعمل المُسجّل وقال :

ـ دعينى أخبرك أن هذه من المرات القليلة التى يطلب فيها المريض زيارة الطبيب النفسى ، لذلك أنا متفائل بالجلوس معكِ ، والآن أخبرينى ، لماذا تظنين أنكِ بحاجة إلى طبيب ؟

ـ لستُ أنا المحتاجة إلى طبيب .

ـ فمن ؟

ـ شعرى .

يمنحنى إيماءة مَنْ سمع فى حياته ما هو أسوأ :

ـ أسمعكِ .

ـ شعرى مُصاب بعقدة نفسية ، لقد رأيتُ بنفسى جدّتى تنفث فى عُقَد شعرى ..

يطلق زفير مَنْ خبر فى حياته ما هو أعجب :

ـ وضّحى أكثر ..

ـ شعرى يقوم بأفعال غريبة ، يتصرف بإرادة مستقلة ، يشى بأسرارى ، يُحرّض على قتلى ، يجعلنى ومن حولى نرى أشياء ليست حقيقية ، نسمع أصواتًا ، ونشم الروائح ، وأحيانًا يُهيَّأ لى أننى ... .

يقاطعنى مستنكرًا :

ـ « يَهيَأ لكِ ؟ » . هذه هى الكلمة التى يجب أن نبدأ من عندها ، وهذه هى الكلمة التى جعلتكِ بحاجة إلى طبيب نفسى .

أنظر له بغيظ مفكّرة فى رد مناسب ، ولكنّه يعاجلنى :

ـ هل تشمّين رائحة الفل المتفتح ؟

أشمشم بأنفى :

ـ لا .

ـ جيّد ، لأنها ليست هنالك ، نحن نشم الروائح الحقيقية ، ولا نشم الروائح التى ليس لها وجود ، أمّا ما دون ذلك يُسمّى «هلوسةَ» .

ها قد جاء إلى ملعبى ، أقيم ظهرى :

ـ هل تشم رائحة الفتّة بالثوم ؟

ـ نعم ، ليس من عادتها ولكن ، ربّما رغبت الجارة بعشاء ثقيل .

أضيّق عينى فى إصرار :

ـ هل تشم رائحة عطرك المفضّل ؟

يشم الهواء ، وينظر لى بعجب :

ـ هل وضعتَه هذا الصباح ؟

أُكمل :

ـ رائحة كمّون مطحون ...

يعطس ، فيما أريح ظهرى من جديد :

ـ رائحة قىء .

أتطلع أمامى شاردةً :

ـ رائحة البحر .

أدير وجهى فى تحدٍّ :

ـ رائحة أمك المتوفاة .

يبسط يديه فى ذهول :

ـ كيف استطعتِ أن .... ؟

أقاطعه :

ـ قلتُ لكَ : ليس أنا ...

يحاوطه شعرى فيما يشبه الضمّة ، ويكمل العبارة عنّى :

ـ شعرى .

ينفتح الباب بقوّة ، ينسل شعرى بسرعة ، يظهر سامى ثائرًا ومن خلفه المعرضة ، يندفع قائلاً :

ـ ما الذى يستهلك كل هذا الوقت ما لم تكونى تخونيننى معه ؟

أهبُ واقفة :

ـ سامى ، هل جُننتَ ؟

ـ لماذا طلبتِ رؤيته ؟ لماذا طلب الانفراد بكِ ؟ لماذا عطره يفوح منكِ ؟

ـ سامى ، ما الذى تقوله ؟ لا تذهب ظنونك بعيدًا ، لا يوجد شيئًا مما فى رأسك ..

ولكن عين سامى تعلّقت بكتفى ، مدّ إصبعيه يلتقط شعرة من فوق كتفى، ثم رفع الشعرة البيضاء أمام وجهى سائلاً :

ـ شعرة من هذه ؟

ومن غيره ؟ شعرة من شاب رأسه فى سماع ما هو ألعن . صفعنى سامى ، وانقضّ على الطبيب الذى انطلقت أصابعه تضغط الإنذار المعتاد فى الحالات الخطِرة ، صعد أفراد الأمن وتعاونوا على تقييد سامى ، كما أمر الطبيب بإرساله إلى المصحة لتهدئة أعصابه ، وطلب من الممرضة مرافقته بنفسها .

وما إن هدأ الموقف حتّى جلس الطبيب يلتقط أنفاسه ، وسوس الشعر فى أذنى ، فوقفتُ أربّت على كتفه :

ـ جيّد أن فعلتَ هذا .

ـ كان من الضرورى إرساله للمصحة ، كان هائجًا ومن الممكن أن ....

لكننى قاطعته :

ـ هكذا أصبحنا وحدنا .

رفع نظره إلى مندهشًا ، فملتُ عليه أشممه عطرى :

ـ حين شمَّ عطركَ أنا قلتُ انكشف أمرنا ، ما كان لنا أن نندفع فى مشاعرنا ، ولكن اللحظة استحقت المغامرة !

هبَ مبتعدًا :

ـ ما الذى تقولينه ؟ لم يحدث بيننا شىء .

ـ هل نسيتَ ما وقع بيننا ؟ يمكننى أن أصف جسدك ، وحتَى الشعرة فى الوحمة أسفل صدرك ، وشعيراته التى لازالت صبية ، برغم شيب رأسك .. هل تريدنى أن أصف أكثر ؟

يمسك برأسه فى توسّل :

ـ لا ، أرجوكِ ، أنا فقط يُهيَّأ لى أننا لم ...

ألتقط الكلمة ظافرة :

ـ « يُهيَّأ لك ؟ » .. إننى أعرف طبيبًا نفسيًا جيّدًا ، ذكّرنى أن أمنحك العنوان .

أتحرك نحو الباب ، وكتمرين أخير أسأله :

ـ ما الذى تشمّه الآن ؟

ـ رائحة الجوافة الطازجة .

ـ صحيح ، والآن ؟

ـ رائحة تبغ .

ـ مضبوط ، والآن ؟

ـ رائحة شياط .

ـ إلى اللقاء .

فيما بعد قرأنا عن الطبيب الذى اختنق بدخان حريق ، وحين قاموا بتفريغ شريط الجلسة الأخيرة قالوا بأنه اعتقد بأن الرائحة وهمية ، ودللوا بهذه الواقعة على أنه حتّى الأطبّاء النفسيون يمكن أن تصيبهم الأمراض النفسية .. عادى ، تحدث .

* * *

كنتُ أجلس شاردة بالمدرج ، حين أخفى سامى عينى من الخلف سائلاً :

ـ من أنا ؟

ـ أنت سامى .

ـ فاحتفظى بعينيكِ مغلقة ، إننى أجهز لكِ مفاجأة .

وأنا لا أخشى شيئًا أكثر من مفاجآت سامى ، لكننى أطعتُ أمره وأطبقتُ بكفى على عينى ، بينما أسأله :

ـ وأنت كيف تشعر الآن ، هل أصبحت بخير ؟

ـ نعم بخير ، الحمد لله ..

ـ أرجو ألاّ تكون قد غضبت مما حدث عند الطبيب .

ـ لا ، أبدًا ، كانت دعابة طريفة .

حمدتُ الله أن اعتبرها دعابة طريفة ، وإن ظل جزء منى يشك فى تقبله الأمر . سمعتُ فحيحًا خافتًا من أعلى رأسى ، فحاولتُ التشويش عليهِ بأن أغليتُ من صوتى :

ـ وكيف كان تدريبك بالحوادث ، هل هناك جرائم لفتت انتباهك ؟

ـ هل سمعتِ عن أسطورة ميدوسا ؟

ارتبكتُ :

ـ وما الذى ذكّرك بها ، هل هناك جريمة لها علاقة بها ؟

ـ بل أنتِ تذكّرينني بها ، افتحى عينيكِ .

فتحتُ عينى فوجدتُ مرآة أمام وجهى ، وبالمرآة رأيت رءوس الثعابين

تفح وتتلوى فى محل شعرى ، انعكست نظرتى عبر المرآة ارتدّت إلى وجهى ، استحلتُ حجرًا أمام عينى ، بينما سامى يقول :

ـ هذه من أجل الدعابة الثانية .

أردتُ أن أقول : «تلك كانت دعابة طريفة أما هذه فثقيلة يا سامى ، وأنا لا أحب الهزار الثقيل » . لكن شفاهى لم تتحرك ، وميدوسا جالسة بالركن تلقم ثعابينها فئرانًا ، ثم نظرت لى من أسفل إلى أعلى وأشاحت بوجهها عنّى .

* * *

لحظة أن تصحو فتدرك أنك كنتَ تحلم ، هذه لحظة لا تقدّر بثمن ، وتصبح هذه الحياة المقرفة الملتوية الشبيهة بالقطارات الأفعوانية هى ملاذك من حلم أشد عبثية ، وكنتَ نسيتَ أنك قد هربتَ منها إلى الحلم فى البداية ، ومن الرمضاء إلى النار ، ومن النار إلى الرمضاء بلا نهاية .

أذكر لسامى أنه صمد معى فترة طويلة ، شخص غيره كان تركنى منذ زمن ، أنا أيضًا وفّيتُ بوعودى معه ، وحين زارنا المرة التالية جلستُ أقطّع له الفاكهة وأسأل :

ـ ألا تلحظ الرائحة ؟

ـ أية رائحة ؟

ـ رائحة المحشى .

لكنه تغضن وجهه وكاد يفرغ معدته ، أشفقتُ عليه :

ـ ما بك ؟

ـ إن آخر ما وجدوه فى معدة القتيلة كان المحشى .

ـ تشغلك كثيرًا هذه الجريمة ..

ـ عناصرها شبه مكتملة : القتيلة مسنّة ، والدافع هو السرقة ، لا ينقص سوى أداة القتل .

أناوله بعض الفاكهة وأقطّع المزيد بينما أشاهد فى التليفزيون إعلانًا عن شامبو يجعل الشعر مرسلاً سائحًا لا يكف يسقط على عينيكِ فى سماجة ، أهتف بعلو الصوت :

ـ أفاقين ! لصوص !

يباغت الصوت العالى سامى الذى يدير رأسه إلى مستفسرًا ، أجيبه بحدّة وكأنما هو سبب الكارثة :

ـ أنا جرّبته بنفسى ، كل يوم يطلعون علينا بمنتج جديد وكل يوم نصدق أكاذيبهم من جديد ، وكأن هناك منتجًا يمكنه أن يجعل الشعر بهذا الشكل سوى أن تتفل بيديك ثم تلصق التُفال بشعرك !

يتقزز وجهه ، لكنّه يجد ضالته فى حديثى :

ـ هل تعرفين بأنهم وجدوا خصلات من الشعر تحت أظافرها ، تخالف شعرها الأبيض ، ولا شك بأنها للقاتل ..

ـ هل سنتحدث طوال الليل عن هذه الجريمة أم ماذا ؟

ـ الطبيب الشرعى يقول إن الجرح بعنقها لم يرَ له مثيلاً بحياته ولا تسببه أية أداة يعرفها ، الجرح عميق بما يعنى أن الأداة طويلة ، وفتحته دائرية ، ولكنها ليست مكتملة الاستدارة ، وإحدى الحواف مُشرْشرَة بينما من الجانب الآخر مستقيمة .. أية أداة قد تسبب جرحًا كهذا ؟!!

أشعر بحركة غريبة فى شعرى ، يسقط على إثرها شىء نسمع له دويًا ، نبصر أنا وسامى موضع السقوط فنجد أنه مقوَر المحشى ، تتسع عينى ذهولاً ، وعينه رعبًا ، ينقّل سامى نظره بينى وبين المقور على الأرض والسكّين بين يدى ، تُفلِت من شفاهه عبارة :

ـ لن أتستر عليكِ ، لن أتستر عليكِ .

أهمُ أن أقترب منه أدافع عن نفسى ، لكنَه أوقفنى بصرخة من حلقه :

ـ ابتعدى عنّى .. ابتعدى عنّى ..

وهرول مغادرًا ، انتظرتُ أن أفتح عينى ، أزيل الغَمَص أو أسقط عن الفراش ، لكنَ أعينى مُكحّلة بلا غمص بينما أغوص أكثر فى الأريكة .

وإذ يبتعد أشيّعه بعبارتى :

ـ ألن تأكل المحشى ؟

* * *

خيرًا ، اللهم اجعله خيرًا ، رأيتُ فى منامى جورج قرداحى ، ثم سمعتُ الموسيقى المميزة لـ « من سيربح المليون » ، وتسلطت الأضواء على .

سألنى جورج ، بنبرة محايدة ، وبطريقته فى الاتكاء على المقاطع لضمان وضوح السؤال :

ـ ما هى الطريقة التى تفضّلين الإعدام بها ؟

ثم عدد الخيارات :

ـ الجواب الأول : السكين ، الجواب الثانى : المقص ، الجواب الثالث : القلم ، الجواب الرابع : المقور .

أفكّر حينًا ثم أقول :

ـ الصراحة أنا محتارة بين القلم والمقور ، الاثنان مستديران وسيتركان أثرًا مشابهًا ، وسيجعلان الناس يقولون : « كانت نهايتها مختلفة كما كانت حياتها » ..

يومئ جورج ثم يسأل :

ـ لو ستختارين بينهما أيهما تميلين له أكثر ؟

ـ هذا اختيار صعب ، فبقدر شغفى بالكتابة بقدر حبى للمحشى ، ولكن أعتقد سيكون القلم أحفظ لماء الوجه ، استمع هكذا إلى العبارة معى : « أعدمت طعنًا بقلم » .. هذا شىء يجعلك تحترم شخصية المُعدَم ، أليس كذلك ؟

يلوى جورج شفتيه :

ـ لا أعرف ، لو لستِ متأكدة يمكنكِ استخدام وسائل المساعدة .

ـ حسنًا ، لا بأس ، لنأخذ رأى الجمهور .

هاج الجمهور وماج ، وعلى صيحة واحدة صرخ :

ـ القلم ! القلم !

أطلقتُ سبّة بذيئة وقلتُ فى حقدٍ :

ـ أولاد الحرام !! وهل يروننى أمامهم مصّاصة دماء حتى يتخلصوا منى بغرس قطعة خشبية ؟ كيدًا بهم لن أختار القلم ! هاه !

ثم التفتُّ إلى جورج وقلت بتحدٍّ :

ـ سأحذف إجابتين .

أومأ برأسه مُرحّبًا ، وعلى الفور اختفت إجابتا : القلم ، والمقور . مال رأسى فى أسى ، فى حين جورج ينكأ جروحى :

ـ لم تفكرى منذ البداية بغير المقور والقلم ، والآن صار عليكِ أن تختارى بين وسيلتين آخرتين ..

أهزّ رأسى دون أن أرفعها ، ولمّا أتجاوز الصدمة بعد ، يشجّعنى جورج :

ـ أردتِ أن تحصلى على نهاية مختلفة بأداة غير تقليدية ، ألا تظنين أن المقص يحقق لكِ ذلك ؟

أرفع رأسى إليه مذكّرة :

ـ ليس مسموحًا لكَ أن توعز لى بالإجابة ، جورج .

يومئ برأسه فى تفهم :

ـ فعلى الأقل بقيَت لكِ وسيلة مساعدة ..

ـ أجل ، أريد الاستعانة بصديقتى .

ـ ومن هى ؟

ـ أحلام .

ـ ولماذا تظنين بأنها قادرة على مساعدتك ؟

ـ إنها ماتت سابقًا ، ويمكنها مشاركتى فى اختيار الوسيلة .

يهتف جورج :

ـ حسنًا ، اطلبوها لنا على لوح الويجا .

تحضر أحلام ، فى حجابها الأبيض ومريولتها الكحلية ، تتناول المقص من بين الخيارات ، وتشبُ على أطراف أصابعها بجانبى تقص شعرى خصلة بعد خصلة .

يهتف جورج :

ـ إجابة صحيحة ، صارت ديّتك الآن ألف جنيه لن تخسريهم .

ويصفق الجمهور .

* * *

أستيقظ فى عزّ الليل ، أجزّ شعرى فى الظلام بالمقص ، وفى الصباح ، أمنح أول سائل على الرصيف ألفًا من الجنيهات .

أفضّ المنديل الذى احتوى خُصَل شعر سامى وأفكّر :

« لا يهم إن فقدتُ شعرى ، المهم أن لم أفقد سامى ، وسأحتفظ بهذه الخصل طيلة عمرى » .

* * *

(تمت)

خاتمة

(أيها الراحل تفكّر: سَلَمة الحاضر نخرة ، سلَمة الماضى ذكرى ، سلَمة الآتى خطِرة ، فتوقف تزن الخطوة ، وتأمّل) .

ألتصق بالنافذة مثل برص على الحائط ، وأرقب الأطفال الذين يلعبون وسط المطر ويغنّون :

«يا مطرة رخَى رخَى ...

على قرعة بنت أختى ... » .

ولكن فى أوقات الضحى كهذه ، تختبئ الأبراص ويكون الأطفال نائمين ، كما توقفت الأمطار منذ وقت طويل ، وإذا أردتُ صحبة ، فلأجد لى شبحًا وحيدًا لا يستغرب حكاياتى عن المسوخ الجائعة والشعور الملتوية ، من أجل هذا أعود إلى حديثى مع فانتوم وأكتب :

- يبدو أننى لم أثر فضولهن بما يكفى لسماع الحكاية ، فقد نظرن لى شزرًا ، مسحننى من أسفل إلى أعلى ، ثم التففن حولى ومضين .

- فهل ستحكينها لى أنا ؟

- لستُ فى مزاج رائق .

- كما تشائين ! لنلتقى غدًا ...

ـ ما أمرك يا رفيق ! ألا تعرف شيئًا عنى بعد ؟ ألا تعرف أنى لا يسعدنى مثل الحكى وأننى خُلِقتَ لروى الحكايا ؟ فقط أتدلل بعض الشىء .

ـ ومن قال إنى لم أعرف هذا !

* * *

إلى لقاء !

أيها القادم إلى ، أيها الراحل عنى ، أيها العابر فوق أحرفى واطئًا جرحى، داهسًا وجعى ، مبعثرًا نزفى ، مشاهدًا ـ عن كثب ـ حبى وخوفى وأعمق أسرار نفسى ، ثم مديرًا ظهرك إلى كأن لم تكن ،

هدئ مسيرك ، سأتبعك .

سنلتقى ، ولو لم تصل إلى ، لوصلت إليك . امكث جوار الحائط ، ادخل داخل الحائط ، اختبئ تحت فراشك ، اخفِ وجهك ، اكتم صوتك ، ستكون لك زلة؛ ستفضحك أنفاسك ، أو تسعل فجأة . ثم لن ينفعك طول الاختباء .

ها قد انتهيت ، ويمكننى أن أقول : « See you »

وبالعربية تصبح : «مصير الأحياء إلى لقاء !»

مدونة (قصص رعب) :

www.kesasro3b.blogspot.com

horrorandlove@gmail.com

I

روايات مصرية
فى كتاب الحب والرعب سطر ، يضمن تدفق الأدرينالين إلى دمك ، قبل أن يُسفك دمك !
الحب والرعب
9

سالى عادل

زفّة ميّت حلقة رعب

تستدرك وردة بصوت تكبحه الدموع :

- كنّا نمرح .. هذه كانت فكرتنا عن المرح ، كما نترك العلكة على مقعد ميس منى ، ثم ماذا ؟ " هذه تحية العاوّ القادم " ، ونضحك . كما نلصق ذيلًا بتنورة ميس عطيات ، ثم ماذا ؟ " هذه تحيّة العاوّ القادم ".. هاهاها.. هاها.. نجذب الحجاب من فوق رأس أحلام ، و" هذه هى تحية العاوّ القادم " ، كان المفترض أن نضحك ، فماذا الذى يحدث ؟ وكيف كان لنا أن نتنبأ بكل هذا ؟

تتدخل ماهينار ببلادة :

- ستضحكين كثيرًا جدًّا ، صدِّقينى .. ست جثث مشعثة الشعور فى فساتين سهرة بباخرة على النيل ، ثم ماذا ؟ " هذه تحيَّة العاوّ القادم ".. هاهاها.. هاها.. هاهاهاهاها... هاهاها

16/1/017

www.riwaya.ga

www.rev
faceboo
ساخن
19350
للشكاوى - للاقتراحات - للدعم الفنى - للتواصل
العربيـــة الحديثـــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية
08039009